بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحابته اجمعين

وبعد ، فان عظمة الامم تعتبر بافكارها التى يبدعها ابناؤها وعلمها الذى يتسلسل فى اجيالها ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

وما الحضارة الا مظهرا حيا وترجمانا عمليا لهذه العظمة ونتائج مباشرة للافكار والقيم ، فاذا انطلقت الافكار والقيم والمعاني من منهج خلقي قويم ، وسلوك نظيف مستقيم ، شمخت عند الامة وقتها حضارة عالية اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها .

وان الكتاب والقلم لأعظم عامل في حفظ الافكار ونقلها من السلف الى الخلف ، ومن أمة الى أخرى عبر العصور والاجيال .

فاذا ضعفت الامة وخفت نجمها وبزها فى ميدان المجد والعظمة غيرها ، بقيت الكتب والاسفار أعظم مورد وأصدق شاهد على سابق الامة وماضيها .

وان الامة الاسلامية التي بقي لها من زاهر حضارتها ، وشامخ مجدها رصيد من الثروة الهائلة ومن المعاني والقيم والافكار بحيث نستطيع أن نجزم معه على أن أمة غيرها لم توازها أو تقاربها فى ذلك الميدان الرحب الذى ضاق عنه غيرها .

وان دورة التاريخ وعجلتـه السائرة حين تدفـع العرب والمسلمين اليوم للنهوض وتحتم عليهم الجد والعزيمة لولـوج حلبـة التقدم والرقي لتوجب عليهم أن يستلهموا تراثهم العظيم ومجدهم العريق ، فلا بقـاء لامـة قطعت الحاضر عن المـاضى ، وبنت دون أساس ضارب فى شعاب الزمن وارجاء الاصالة على الحاضر دون الماضي أو العكس .

ولهذا قامت في ارجاء العالم الاسلامي جهود فرديـة ـ غالبـا ـ لبعث التراث ونشـره ، واهتمت بعض الحكومات العربية بذلك مشكورة واولته العناية الخاصـة .

وفي هذا الميدان عقد اتفاق هام ـ لـه ما بعده ان شاء الله ـ بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الامارات العربية المتحدة الغاية منـه تحقيق ونشر بعض عيون هاتك الذخائر التي لا تقـدر بثمن ، وكم يكون أبناء العربية وقراؤها سعداء اذا كان هـذا الاتفاق نقطة انطلاق تحتذى للتعاون بين العرب والمسلمين .

والكتاب الذى نقدمه اليوم هو (معيار الاختيار فى ذكر المعاهـد والديار لمؤلفه لسان الدين ابن الخطيب) يعد ثمرة من ثمار هذه الاتفاقية المباركة التي سيثمر ويستمر عطاؤها وانتاجها بحول الله وقوته .

وختاما نسال الله تعالى أن يرعى ملك المغرب الهمام جلالة الحسن الثاني واخاه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل النهيان رئيـس دولـة الامارات العربية المتحدة اللذيـن رعيـا هذا الفضـل الجارى ، والنفع الدائم وان يوفقهما في ميـادين البـر والاصلاح وخدمـة الاسلام والمسلمين انه نعم المولى ونعم النصـير وهو على كل شيء قديـر ، وبالاجابة جدير والحمد لله رب العالمين .

صنـدوق احيـاء التـراث الاسـلامى
المشترك بين حكومة المملكة المغربيـة
وحكومة الامـارات العربيـة المتحـدة

مقدمة

ان كتاب « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » لابن الخطيب من اطرف كتب المؤلف الشهيرة ، فقد صاغه على هيئة مقامة ادبية ذات منهاج واسلوب فنى انفرد به لسان الدين روعة وابداعا ، مستهدفا وصف اهم المدن الاندلسية والمغربية جغرافيا واجتماعيا كما رآها وعاصرها فى منتصف القرن الثامن الهجرى (منتصف الرابع عشر الميلادى) . فلم تكن المقامة التقليدية لديه هدفا لذاتها من شعوذة واستجداء كما هى عند الحريرى والهمذانى وغيرهما ، او وعظ وتذكير بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب كما هى عند الزمخشرى والدمياطى وامثالهما ، بل ان المؤلف كانت غايته علمية بحتة ابرزها فى صورة ادبية ثقافية ممتعة ، وبالرغم من قيود السجع والمحسنات البديعية الا ان وصفه للبلدان فى مناحى شتى قد جاء فى صورة مشوقة تنبض حياة ، وتتالق براعة . ويصف المقرى هذا الكتاب فيقول : « وللسان الدين مقامة عظيمة بديعة ، وصف بها بلاد الاندلس والعدوة ، واتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب (1) » .

ولقد أورد ابن الخطيب « معيار الاختيار » ضمن مؤلفه الادبى الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الذى ما يزال مخطوطا ، وان كان بعض الباحثين قد قام بتحقيق اجزاء منه ، فمن اشهر نسخ « الريحانة » التى ورد بها « المعيار » واقتضت طبيعة التحقيق والدراسة الرجوع اليها فى كل من المغرب (الرباط ــ فاس) وتونس والجزائر والقاهرة واسبانيا وروما :

1 ــ نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

الاولى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخير فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى ثناياها ثقوب ونقص واضطراب ، وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى 309 لوحة ، مسجلين برقم 19875 ز .

---

1) النفح : ج 8 ص 315 ط محى الدين ــ القاهرة .

الثانية : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجة : « ..وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المعشوقة ، بريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب » .. الخ ، وتقع هذه النسخة فى مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم 524 ادب س ، ويقعان فى 460 ــ 650 صفحة ، مسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز ، وقد اتخذنا لهذه النسخة فى التحقيق الرمز « د » .

2 ــ نسخة الاسكوريال بمدريـــد .

وهى مسجلة برقم 554 من فهرس الغزيرى ، وهى نسخة جيدة للغاية قد كتبت بخط اندلسى باهت ، وتقع فى 281 لوحة كبيرة ، اعنى 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفى كل سطر 12 كلمة فى المعدل العام ، وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة انها كتبت سنة 888 هـ ، وقد رمزنا اليها خلال البحـــث بالرمز « أ » .

3 ــ جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربى وهى عبارة عن السفر الثالث من « الريحانة » ، وعدد لوحاتها 119 لوحـــة كبيرة ، مسجلة برقم 252 .

وقد احتوى هذا السفر على « معيار الاختيار » ، ورمزنا لهذا المخطوط اثناء التحقيق بالرمز « ف » .

4 ــ قطعة مخطوطة اخرى فى مكتبة الجزائر الوطنية من « الريحانة » ، تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة باكثر من خـــط معظمه قديم ، والبعض منها ــ ولاسيما الوسط ــ قد اكمل مؤخرا، او بتاريخ احدث ، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثانى والاخير من « الريحانة » ، حيث تبدا بالفصل الذى يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيـــات » ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هى اقدم جزء من المخطوط رقم 2010 ، وقد احتوى هذا الجزء ــ ضمن ما احتوى ــ كتاب «معيار الاختيار» موضوع الحديث ، وقد رمزنا اليها بالرمز « ج » .

5 ــ وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » :

الاولى : تضم السفرين الرابع والخامس ، وتقع فى 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، فى كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى ، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال عام تسعة عشر

ومائة وألف (لم يذكر تاريخ اليوم او الشهر) وهـــى برقـــم 40 ــ 565 ، ورمزها ((س)) فى تحقيقنا .

اما القطة الثانية : فهى برقم 3011 ، وتنطبق عليها نفس اوصاف الاولى ولاسيما الخط .

6 ــ اما فى الخزانة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظـات) فتوجد عدة نسخ من ((الريحانة)) ، أظهرها واشهرها النسخـة الكتانيـة المسجلة برقم 331 ك ، وهى عبارة عن مجلد ضخم يتألف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفى كل صفحة 25 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى واضح، وبها زيادات حديثة ، اغلب الظن أنها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى أمية والخلفاء من بنى العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته ، أما النسخة الاساسية للريحانة فتقع فى 599 صفحة ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ك))

وتوجد بنفس هذه الخزانة غير التى ذكرنا ــ سبع نسخ من ((الريحانة)) قد اشتمل معظمها على ((معيار الاختيار)) وفيما يلى مـــا تضمن منهـــا ((المعيار)) :

فاولها : نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربى واضح . والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتب بنفس الخط المغربى الواضح . وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم 2195 بالمكتبة الملكية ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ل)) اثناء التحقيق .

وثانيتها : تشتمل على السفرين الرابع والخامس من ((الريحانة)) وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ، ورقم التسجيل 600

وثالثها : عبارة عن النصف الثانى من ((الريحانة)) ، وهى نسخـــة تحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع جميعها فى 186 لوحـــة .

ورابعها : نسخة ذات اوراق بالية وقديمة تشمل 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها ((السفر الثالث من ريحانة الكتـــاب)) ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة ((كمل السفر الخامس)) ورقم تسجيلها 6400 .

هذا ، ولا يغيب عن الفكر ان هناك نسخا اخرى من مؤلف ابن الخطيب « ريحانة الكتاب » فى حوزة المكتبات الخاصة ، جلها فى المغرب الاقصى ، ومعظمها قد انتظم « معيار الاختيار » ، بيد انه لا يتسنى للباحث ان يستدل ويطلع عليها فى سهولة ويسر لسبب او لآخر ، فمن ذلك على سبيل المثال النسخة الجيدة التى بمكتبه صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وقد تصفحت سفرا خاصا بـ « معيار الاختيار » فوجدتها نسخة قريبة الشبه خطا ونسخا من النسخة الاولى الخاصة بالمكتبة الكتانية التى اشرنا اليها فى ثنايا الحديث عن نسخ الخزانة العامة بالرباط .

ونرى ـ بهذه المناسبة ـ ان نذكر ان مؤرخ المملكة المغربية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور قد اخبرنا فى صدد « معيار الاختيار » بانه سبق ان راى نسخة تكاد تكون فريدة منه لدى احد شيوخ مدينة « تلمسان » منذ مدة طويلة ، وترجع اهميتها لكون هذه النسخة قد اشتملت على وصف تلك المدينة وهو ما تنفرد به من دون النسخ الاخرى الخالية منها تماما ، ويعزز رواية الاستاذ عبد الوهاب وجود وصف مدينة تلمسان فى كتاب « نفح الطيب » (ج 9 ص 340 ـ 341) وهو لابن الخطيب كما اثبته المقرى ، والاسلوب فى الوصف على نمط الاسلوب الذى انتهجه المؤلف فى « معيار الاختيار » من بداية بالاستفسار : « قلت فمدينة تلمسان ؟ فاجابة من الراوى : قال : « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف .. الخ » ، ثم يعقب وصفه للمدينة بما عودنا من ايراد ابرز المثالب كمثيلاتها ، فقال : « .. الا انها بسبب حب الملوك ، مطعمة للملوك . ومن اجل جمعها الصيد فى جوف الفرا ، مغلوبة للامراء ، .. الخ » .

حقا لقد كانت « تلمسان » يومئذ ضمن مملكة بنى مرين حينما امتد ملكهم الى الجزائر عام 796 هـ (1393 م) ، واضحى ملك بنى زيان تابعا لبنى مرين ، وبقى الامر كذلك حتى دب الضعف فى الدولة المرينية ، واستبد بنو وطاس ووزراؤهم بالامر ، فهيا ذلك لبنى زيان ان يستقلوا مرة اخرى بأمر تلمسان ، كما هيا مثل هذا الاستقلال للاشراف ان يظهروا فى مراكش بجنوب المغرب (1) .

وقد وفد ابن الخطيب فى ذلك الابان على مدينة تلمسان سفيرا ثم زائرا، واخيرا عندما لجا فارا من الاندلس ، حيث احتمى بظلال بنى مرين على ما

---

1) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 166 ، والذخيرة السنية ص 148 ، والاستقصا ج 2 ص 16 .

سنفصله فى الترجمة للمؤلف من بعد ، الامر الذى يقطع بان المؤلف اورد وصف تلمسان ضمن ((المجلس الثانى)) الخاص باهم المدن المغربية ، كما لا نستبعد من ناحية اخرى أن تاليف لسان الدين للمعيار كان زمن امتلاك المرينيين لتلمسان ، وربما كان ذلك أواخر ايامه ، حيث اتيحت له اكثر من فرصة لدراسة المدينة وسواها من مدن المغرب ، ورسم صورة واقعية لها ، كعهدنا به نحو المدن الاخرى التى تناولها بالوصف فى مؤلفه هذا .

لقد كنت تواقا الى رؤية تلك النسخة ، عسى أن أتمكن من ازالة علامة الاستفهام التى ترتسم حيال بقية النسخ من ((الريحانة)) المشتملة على ((معيار الاختيار)) والتى خلت ــ للاسف ــ من وصف مدينة ((تلمسان)) ، ومن يدرى فربما كانت نسخة الجزائر اقرب من غيرها الى عصر المؤلف ان لم تكن قد نسخت على ايامه ، ولكن ما الحيلة وقد طوى الزمن صاحب النسخة، ولا ندرى بالتالى الىمن آلت، هذا ان لم تكن قد انقرضت هىبدورها حيث لم نسمع عنها حتى يومنا هذا من قريب أو بعيد ، ولم تتناولها من قبل فهارس المستشرقين ، كما لم تشر اليها أقلام الباحثين من المهتمين بالتراث الاندلسى خاصة .

وعلى أى حال فلا مناص من الحاق وصف مدينة ((تلمسان)) فى نهاية ((المجلس الثانى)) للمدن المغربية ، وذلك نقلا عن ((نفح الطيب)) بنصه ، مقدرا للاستاذ عبد الوهاب بن منصور لفتته العلمية .

هذا ، وقد نوهت أثناء عرض الكتاب بـ ((الفصل الثالث)) ان النسخة التى رايت أنها أوفى وأحق بالاعتماد فى التحقيق ــ مع اعتبار بقية النسخ ــ هى نسخة الاسكوريال (554) .

وقد رايت استكمالا للفائدة ، والماما بما قد يحتاجه الباحث أن أختط فى هذا التحقيق النحو التالى فى اربعة فصول :

الفصل الاول :

وقد أوردت فيه ترجمة تكاد تكون وافية بالغرض لحياة المؤلف ((لسان الدين ابن الخطيب)) .

الفصل الثانى :

وبه بيان لوجهة نظر بعض المستشرقين والباحثين تجاه ابن الخطيب .

الفصـــل الثالـــث :

وقد اوردت فيه دراسة خاصة بـــ ((معيار الاختيار)) فى عرض تحليلى من الناحيتين الادبية والتاريخية ، واهمية الكتاب كعمل ادبى ، ثم كوثيقـــة تاريخية هامـــة .

الفصـــل الرابـــع :

وقد اوردت فيه ((المجلس الاول)) من النص ، وهو الخاص بوصف ((المدن الاندلسية)) .

الفصـــل الخامـــس :

وقد اوردت فيه ((المجلس الثانى)) من النص ، وهو الخاص بوصف ((المدن المغربية)) . وفى ذيلا كـــلا ((المجلسين)) اثبت فى التعليق ما اقتضاه التحقيق ، واستوجبته الدراسة .

ولا يسعنـــــى ـــ اذ اقـــدم هـــذا العمـــــل كتـــحقيـــق جديد فى مجال التراث الاندلسى ـــ الا ان اعترف بالفضل لكل سابق فى هـــذا الميدان ، ولا سيما حيال من اسهموا بدراسة او تحقيق لابن الخطيب ومؤلفاته فقد كانت بحوثهم عونا جديرا بالتقدير ، كما اذكر لاستاذنا العلامة عبد الله كنون فضله فى هذا العمل ، جزاه الله خير الجزاء ، وانوه بسبق الزميـــل الدكتور احمد مختار العبادى ، معترفا بالاستفادة الحقة من دراسته فى هذا الموضـــوع .

اخيرا ، آمل بهذا التحقيق ـــ على هذه الصورة ـــ لكتاب ((معيار الاختيار)) ان اكون قد اسهمت بلبنة فى صرح الذخائر الاندلسية .

والله اسأل ان يجد فيه رواد الفكر وعشاق التراث ما ينشـــــدون او يؤملون ، انه سميع قريب ، وبالاجابة جدير .

وهو ـــ سبحانه ـــ ولى التوفيق

المحقـــق
دكتـــور محمـــد كمـــال شبانه
استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعات المغرب

المغـــرب فى
غرة المحرم 1396 هـ
23 نوفمبـــر 1976 م

الفصل الأول

حياة ابن الخطيب
وآراء بعض المستشرقين حوله

ابن الخطيب

713 ـ 776 هـ (1313 ـ 1374 م)

ثانى اثنين أرّخا لعصر بنى الأحمر ، فكشفا عن السلالة النصر
حتى عصرهما الذى عاشاه جنباً الى جنب ، ولم ينل من علاقتهما الطيبة
التنازع على المزيد من السلطة ، فى دولة طالما استبد فيها الحجاب و
وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يـدى من نازعو
المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية أو ادارية ، وهذا ما حد
الخطيب ، وبين قاضى الجماعة أبى الحسن على النباهى الجذامى
سنرى من خلال سيرة الأول .

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد ، بن عبد الله ،
سعيد ، بن على ، بن أحمد ، السلمانى ، نسبة الى سَلْمان
بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت أسرة ابن الخطيب
ومن اليمن وفدت الأسرة الى الأندلس ، حيث اتخذت قر

ثم هاجرت الأسرة الى طليطلة ـ كما أخبر
فى مقدمة « الاحاطة » ـ عام 202 هـ 817 م ، وهو
أهل الربض بقرطبة ، ضد أمير الأندلس الحكم بـ
أهل الربض ضد الأمير ، ولكن الحكم قضى على

بـ (موقعة الربض) وشتت شمل القائمين بها ، فنفى من نفى ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين وعديد من العلماء ، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب ، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف ، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة ـ حيث أصبحت هدفاً للأسبان فى أواسط القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) ـ بادرت بالنزوح عنها الى مدينة لوشة (1) مسقط رأس ابن الخطيب فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) .

تربى ابن الخطيب فى أسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لأبيه فى كتابه (الاحاطة فى أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد فى (672 هـ = 1273 م) واستقر حيناً فى غرناطة ، ثم عاد الى لوشة مقر الأسرة ، ثم رجع الى غرناطة أخيرا ، حيث التحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة (713 ـ 725 هـ ـ 1314 ـ 1324 م) .

وقد كانت أسرته تحمل اسم « الوزير » الى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم « الخطيب » .

ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد ، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا ، ثم بأخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (733 ـ 755 هـ ـ 1333 ـ 1354 م) ، حيث عاصر الكاتب الكبير ، والرئيس العظيم أبا الحسن على بن الجيَّاب ، والذى مُنِح من قِبَله لقب الوزارة ، وأخيراً سقط عبد الله مع ولده الأكبر ـ أخى لسان الدين ـ قتيلا فى موقعة طريف الشهيرة ، التى تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف ثم الجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد ، وذلك فى جمادى الأولى 741 هـ (1340 م) .

---

1) تعرف فى الاسبانية اليوم باسم « **Loja** » ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وهى احدى المدن الاسلامية الشهيرة أيام حكم العرب ، وقد استردها الأسبان قبل سقوط غرناطة بقليل (891 هـ = 1486 م) ، يقدر عدد سكانها حالياً بعشرين ألف نسمة تقريبا ، بينما كان عدد السكان ـ على عهد ابن الخطيب ـ يجاوزون هذا العدد بكثير كما يتضح من تاريخ المدينة يومئذ .

لقد نشأ ابن الخطيب فى العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (2) ، فقد كانت وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء ، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر ، مثل « أبى عبد الله بن الفخار الألبيرى » شيخ النحاة فى عصره ، « وأبى عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبير ، « والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى » ، ودرس الأدب والشعر على الوزير « أبى عبد الله ابن الحكيم اللخمى » وعلى الرئيس « أبى الحسن على بن الجياب » ، وغير هؤلاء ، كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ « يحيى بن هذيل » . فلا نبالغ اذن اذا قلنا : ان غرناطة ـ فى ذلك الوقت ـ كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والاسلامية ، فى هذا القطر الغربى من العالم الاسلامى ، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد .

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسى بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول الى مركز أبيه ، فلما توفى الوالد دعى ابنه للخدمة مكانه ، وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس « أبى الحسن بن الجياب » وزير السلطان ابى الحجاج يوسف الأول النصرى وكاتبه (3) ، ثم خلف أستاذه فى الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لهذا السلطان ، وكان ابن الخطيب يومئذ قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً ، بفضل أستاذه الراحل ، وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية ، التى حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب ، والتى نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير فى كتابه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما أورد المقرى عددا منها فى مؤلفه « نفح الطيب » (4) ، ويعتبر كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » مجموعة من الرسائل السلطانية التى تمثل العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، على لسان سلطانه يوسف الأول ابن الأحمر ، الى معاصره فى فاس أبى عنان فارس المرينى .

---

2) العبر لابن خلدون جـ 7 ص 332 .

3) توفى ابن الجياب بوباء الطاعون الجارف ، فى شوال 749 هـ (يناير 1349 م) .

4) جـ 3 ص 570 ، وما بعدها ، جـ 4 فى عدة مواضع منه .

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطى ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعم ، كما أنه أصبح أثيراً لديه ، مودعاً اياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التى دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى . فقد بعثه عاهل غرناطة سفيراً الى أبى الحسن المرينى ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا ـ فى يـوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) ـ خلفه فى الملك ولده السلطان محمد الخامس الغنى بالله ، واستمر ابن الخطيب فى معاونة الوزير أبى النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبى عنان فارس المرينى » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هـذه نجاحاً عظيماً ، ذلك أن ملك المغـرب استجاب للمطالب التى حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفى مقدمتها العون الحربى لمقاومة أطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغنى بالله ، اذ منحه ثقته كأبيه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيـــف .

ولكن حدث أن اندلعت الثـورة بغرناطة ، فى رمضـان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغنى بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبى النعيم رضوان ، ثم فرار الغنى بالله الى وادى آش (5) ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله فى منصب الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل فى نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

---

5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة فى وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغني بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ، سياسة منه في الابقاء على أواصر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظاً بهم سنـــدا لمستقبل الدولة الاسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادي آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس في محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما ، وألقى ابن الخطيب في هذه المناسبة ــ بين يدي المضيف ــ قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل ــ بصفته من كبار رجال البلاط المريني ــ فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تأثـــراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب في رعاية السلطان« أبي سالم »، الذي أقطعه الأراضي، ورتب له الرواتب ، حيث استقر في مدينة « سلا » (7) حوالي ثلاثة أعوام منفياً 760 ــ 763 هـ (1358 ــ 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال، ولكن لم ينس ــ في الوقت نفسه ــ نزعته الثقافية والتأليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء في تجواله ، وفي نهاية المطاف يرجع الى سلا ، حيث يرابط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملـــوك بنـــي مريـــن .

---

6) نفح الطيب للمقري ج 3 ص 46 ــ 48 ، أزهار الرياض لنفس المؤلف ج 1 ص197 ــ 200 وهي ثمانون بيتا .

7) سنعرف أيضاً بهذه المدينة من بعد في مناسبة وصفها .

ولقد أصيب ابن الخطيب ـ ابان هذه الفترة ـ في زوجته أم أولاده ، وبالرغم من كل ما أصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التأليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفى دليلا على هذا تلك المؤلفات التى حررها وقتئذ ، ومن أهمها :

1) معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار (هذا الكتاب) .

2) نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .

3) اللمحة البدرية ، فى تاريخ الدولة النصرية .

4) الحلل المرقوقة ، فى اللمع المنظومة (8) .

5) رقم الحلل ، فى نظم الدول .

6) كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان .

7) رسائل فى فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا .

وفى هذه الأثناء تم انقلاب فى فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم ، فى ذى القعدة 762 هـ (1360 م) ، وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، الذى أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، ووقف الى جانبه فى استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، وواتت الظروف ، باندلاع ثورة جديدة فى غرناطة ، صرع فيها السلطان اسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبى سعيد ، الذى فر الى (قشتالة) عقب عودة الغنى بالله الى الأندلس ، واستيلائه على ولاية مالقة ، ثم دخوله غرناطة ، وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ = 1361 م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد ، محمد الخامس الغنى بالله ، وزيره المنفى ابن الخطيب ، ليقدم الى دار ملكه ، برسالة مؤرخة : 14 جمادى الآخرة 763 هـ (15 أبريل 1361 م) وليتقلد منصبه السابق ، فاستجاب ابن

---

8)هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد أهداه الى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب ، فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب ـ فى شأن المؤلف ـ الى سلطان غرناطة ، يطلب منه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

الخطيب ، وجاز البحر صحبة أسرة السلطان وأسرته ، ثم وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبى يحيى) ، صاحب اليد على السلطان فى استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ؛ اذ زين للسلطان خطورة نفوذ عثمان هذا ، وبدأ يخيفه من غدره وغدر أشياعه ، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب ، وقضى على عثمان وآله فى شهر رمضان 764 هـ = 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناوىء أو منافس ، ولكن الى حين ، فقد شعر مرة أخرى بما يحاك حوله من دسائس ومكائد ، ورأى سلطانه يتأثر بسعاية الخصوم ، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان وثيقا الصلة بالسلطان بحكم وضعيتهما فى الخدمة السلطانية ، ولمكانتهما السياسية فى الدولة ، وهما :

1) الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن زمرك » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه فى الوزارة .

2) قاضى الجماعة أبو الحسن على بن عبد الله النباهى ، ولى نعمة ابن الخطيب .

وحينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائياً ، دون أن يشعر السلطان مطلقاً بذلك ، وفعلا طلب منه أن يأذن له فى تفقد بعض الثغور والموانىء الأندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان وزيرنا ـ من جانبه ـ قد أعد العدة للابحار الى المغرب ، حيث يحل ضيفاً لاجئاً على السلطان أبى عنان فارس بن أبى الحسن المرينى ، وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، الذى كان يومئذ ضمن أملاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد الميناء بحفاوة ، وسهل له مهمته ، بأمر من سلطان المغرب ، وأجازه الى سبتة هو ومن معه من ولده ، وقبل أن يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغنى بالله

يعلل فيها مسلكه هذا ، ويبرر تصرفه الاضطرارى ، وأخيراً يطلب غفرانه ، راجياً عونه لأسرته التى خلفها وراءه فى غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى سبتة ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان عبد العزيز الذى احتفي به وأكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطانها ان يجيز أسرة ابن الخطيب ، فأجابه ابن الأحمر الى طلبه ، وكان ذلك عام 773 هـ = 1371 م .

وكان من المتوقع أن يهنأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به ، وأبدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن ـ للأسف ـ اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه ـ على هذه الصورة ـ مادة دسمة للكيد ، وأكدوا للسلطان محمد الخامس ابن الأحمر ادانته ، وعدم وفائه لولى نعمته ، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب ، وفى هذا يخاطب القاضى النباهى غريمه ـ فى الرسالة المعروفة التى بعث بها اليه : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، . . ، ثم هربتم بأثقالكم » (9) .

كان القاضى النباهى فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب ، بل إن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يدى ابن الخطيب نفسه ، كما نجد فى كتاب الاحاطة ترجمة للنباهى تنبىء عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ؛ اذ ينعته بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف عن نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضي غير هيوب . . . الخ » ، ولكن ذلك « النباهى » تنكر تماماً لابن الخطيب ، ولم يحفظ له هذا الجميل ؛ فقد آزر الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعياً حثيثاً فى سبيل القضاء عليه ، وتتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصى ، والضغائن الدفينة ، فى تلك

9) المقرى فى « نفح الطيب » جـ 7 ص 56 .

الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما أنـه نسب اليـه ـ فى بعض مؤلفاته ـ بعض محدثات فى الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول فى بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس ، وذلك بالطعن أو العيب فيهم ، الأمر الذى يستنكره الدين . . . . ، الى آخر ما جاء فى تلك الرسالة من هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للأندلس مؤخراً ـ على تلك الصورة ـ رأى فيها النباهى غدراً بالسلطان ولى نعمته ، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع للعبادة فى المغرب ، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، أو أبقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية التى يتهددها خطر الأسبان كل حين .

وفى الأخير ينهى النباهى رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب ، بأنها حديثة النعمة ، وأن ثروتها هذه لم تأت الا عن طريق المنصب والسلطة . .

وقد كان لهذه الرسالة أثر كبير فيما بعد ؛ حيث كانت صك الاتهام ، وأدين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها ، وذلك عندما حلت نكبته ، ودنت ساعة نحسه (10) .

هذا ، ويرجع تاريخ الرسالة هذه الى أواخر جمادى الأولى 773 هـ = 1371 م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، وأجاب على ما جاء بها مفصلا ، فى كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضى النباهى ، عندما وصفه بأنه « الجعسوس » أى : القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللـدود ، وسماها « خلع الرسن ، فى وصف القاضى أبى الحسن » .

ظل القاضى النباهى وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عهد النباهى الى قضاة غرناطة باستصدار حكم الشرع فى جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة بهذا

---

10) المقرى فى « أزهار الرياض » جـ I ص 212 ـ 224، حيث أورد المؤلف الرسالة كاملة.

الحكم ، وبعث القاضى أبو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم ، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هـلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ! ! ! » وبالغ فى اكرام ابن الخطيب ، وأضفى عليه مزيداً من عنايته .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب فى عهد صديقـه السلطان عبد العزيز ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ، وقد رمى من وراء ذلك الى سحق أعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حمايـة مصالحـه .

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان عبد العزيز ، فصمم على تنفيذها ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينـه (ابن الخطيب) وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز فى ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعـه من تلمسان الى المغـرب (11) » ، وبلغت ابن الأحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيراً ، وأسرع الى ايفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملا فى نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره . ثم تفاجىء الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعدئذ بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « أبو زيان محمد السعيد » طفلا فى الرابعة من عمره ، فى ربيع الآخر 774 = 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره « أبو بكر بن غازى » ، فتغيرت الأوضاع السياسيـة بالمغرب تماما ، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فألف كتابه المعروف باسم « أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، وفيه يبرر هذا الوضع الجديد شرعا ، وعرفا وتاريخا ، وأورد لذلك الأشباه والنظائر ، رداً على المناهضين بالمغرب ، وخاصة بنى الأحمر وعملائهم .

---

11) ابن خلدون فى « العبر » جـ 7 ص 338 – 341 .

وفى هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للايقاع بابن الخطيب ، وذلك بأن أوعز الى الوزير « ابن غازى » أن يبعث اليه بابن الخطيب ، فامتنع ابن غازى ، وتوترت العلاقات مرة أخرى ، بين غرناطة وفاس ، الأمر الذى جعل ابن الأحمر يوغر صدور هؤلاء الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس ، وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما أقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم ـ وخاصة حاكم سبتة أبا محمد بن عثمان ـ بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلا راشداً ، لا طفلا صغيرا ، لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن أبى سالم ملكاً على المغرب ، وأنه ـ أى محمد بن عثمان ـ سيكون الوزير مستقبلا ، وأعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة مطالب ، بعد نجاح الخطة ، وهى :

1) تسليم ابن الخطيب .

2) تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .

3) تسليم جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، أدت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ، ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان أبى سالم والياً على المغرب (776 هـ = 1374 م) .

وهنا أسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود ؛ فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود من ألد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك الى فاس ليشهد آخر فصل فى هذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، وبوصول ابن زمرك عقد السلطان أحمد مجلساً من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس ، حول كافة الادعاءات المقامة ضده ، وبالأخص دعوى الالحاد ، تلك الدعوى التى صاغها القاضى النباهى من قبل ، وكان مجلساً

صورياً بطبيعة الحال ؛ فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ، ومتفقاً عليها من قبل، فى كل من غرناطة وفاس .

لقد أوذى ابن الخطيب أمـام شهود هذه المؤامرة ، وأفتـى الفقهـاء المتعصبون باعدامه شرعاً ، فأعيد الى سجنه حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله فى السجن ، وفعلا بعث اليه ببعض الأشرار الذين قتلوه خنقاً أواخر عام 776 هـ = 1375 م ، وفى الصباح سحبت جثته الى الفضاء ، حيث تم حرقها ، ودفن بضاحية فاس (12) .

ويروى المقرى أنه تمكن مؤخراً من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك خلال اقامته بفاس ، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) ، فزاره مراراً حيث يرقد ، وفى هذا يقول : « وقد زرته مراراً ــ رحمه الله تعالى ــ بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذى يقال له : باب الشريعة ، وهو يسمى الآن « باب المحروق » ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل اليه بانحدار كثير (13) » .

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر ، وأهدى العلوم والمعارف من نفائس .

---

12) ابن خلدون « العبر » ، جـ 7 ص 341 ــ 342 .

13) المقرى « نفح الطيب » ، جـ 7 ص 83 .

ابن الخطيب
في نظر بعض المؤرخين والمستشرقين

قضى الوزير الفذ ، والمفكر العظيم ، والمؤرخ الكبير ، والموسوعة العلمية ، على هذا النحو ، ضحية الأحقاد والأضغان ، وبالرغم مما أثير حول الرجل إبان محنته من موجة عارمة بالسخط ، فان هذه الموجة لم يطل أمدها ، اذ كانت مغرضة عارية من ثوب الحقيقة ، يدل على هذا ما رأيناه من المؤرخين القدامى ، الذين انبرت أقلامهم لانصافه ، واحلاله المكانة اللائقة به بين رجال التاريخ ، ونخص من المؤرخين أولئك الذين قربوا من عهده ؛ فابن خلدون صديقه القديم يسجل أولا أنه « هو الهالك لهذا العهد ، شهيداً بسعاية أعدائه (I4) ، » ثم يورد ـ فى مقام آخر ـ أنه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » ، كما يشهد له فى ميدان الشعر والنثر بقوله : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ فى الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ، ويتحدث ابن خلدون كذلك عن رسائل ابن الخطيب السلطانية بقوله : « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبة جيرانهم (ملوك بنى الأحمر) من ملوك العدوة » .

وحقا لقد خلف ابن الخطيب من هذه الرسائل روائع ، تعد نموذجاً رفيعاً ، لما بلغه قلم الرجل من شأو فى فن النثر الوزارى السياسى خاصة ،

I4) المقرى « أزهار الرياض » جـ I ص I9I .

سواء ـ من هذه الرسائل ـ ما بعث به على لسان سلطانه الى ملوك المغرب أو ملوك النصارى ، أو سلاطين مصر ؛ فبين أيدينا الكثير الجمّ ، ويعتبر كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مجلداً ضخماً لألوان نثر ابن الخطيب المختلفة، ما بين أغراض سلطانية ، الى رسائل اخوانية ، الى أوصاف حربية لمعـارك دارت رحاها على أيامه .

أما المقرى فقد جمع فى مؤلفه « نفح الطيب » معظم آثار ابن الخطيب . وما كان له من أخبار فى الفترة التى عاشها بالأندلس والمغرب ، ويكاد يكون معظم هذا السفر الضخم وقفاً على ابن الخطيب ، حتى أنه قرن اسم الكتاب به .

وقد أشاد المقرى فى أكثر من موضع ـ من كتابه هذا ـ بوزيرنا ، فيقول عنه مثلا : « اذ هو فارس النظم والنثر فى ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق فى تلك الميادين بأداة الحصر (I5) » .

وفى مجال العلوم والآداب بألوانها هو « امام هذه الفنون ، المحقق لذوى الآمال والظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليد الطولى فى العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائعة التى تزيح وحشة الأنفس بايناسها (I6) » .

وبالجملة ، فالمقرى يرى أن ابن الخطيب « قد قصرت ألسن البلغاء عن عُلاه ، وزانت صدور الدواوين حُلاه ، وجمع خلالا حسانا ، وكان للدين لسانا (I7) » .

أما الأمير « أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر » ، معاصر ابن الخطيب ، فيسجل فى كتابه « نثير فرائد الجمان ، فيمن ضمنى واياهم الزمان » مواهب

I5» المصدر السابق جـ I ص 77 .

I6) المقرى « نفح الطيب » جـ I ص II0 .

I7) المقرى « نفح الطيب » جـ I ص III .

هذا الوزير وعبقرياته ، فيقول : « هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب العَرْض الى يوم العَرْض ، لا يُدافَع مدحه فى الكتب ، ولا يُجنح فيه الى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقولة ليس بالكهام ؛ اذ هو الماضى ، والا فانظر كلام الكُتاب الأُوَل من العُصْبة ، كيف كان فيهم بالافادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والامتاع بالفهوم العقلية (18) » .

كذلك يبدى النقاد الأجانب اعجابهم وتقديرهم لابن الخطيب ، وينوّهون فى كثير من المناسبات بمنزلة الرجل العلمية والأدبية ، وما زالت آثاره محل دراستهم المستفيضة ، معينا لا يغيض ، ومنهلا بالمعارف يفيض .

وفى طليعة هؤلاء النقاد الأجانب المستشرق الأسبانى (سيمونيت Simonet) حيث يقول : « ان ابن الخطيب قد خلّف لنا آثاراً كثيرة ، فى النثر والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة ، والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات ، والطب والبيطرة ، والموسيقى ، والفن الحربى ، والسياسة ، وكلها غنية فى الابتكار والتعمق والرشاقة (19) » .

وبهذه المناسبة نذكر أن المستشرق « سيمونيت » تناول بالتحقيق والترجمة المدن الأندلسية التى وصفها ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » موضوع هذا الكتاب ـ كما أسلفنا فى المقدمة ـ على نحو ما سنفصل القول عنه فى الباب الثالث ، عند حديثنا عن قيمة مؤلفه هذا من الناحيتين التاريخية والأدبية .

---

18) المقرى « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض » جـ ١ ص ١٩١ .

19) F. J. Simonet. Discripcion Del Rieno de Granada, Sacada Del Los Autores Arabigos.

هذا ، ويكفينا فى هـذا العرض الموجز للتعريف بابن الخطيب أن نقتصر على آراء هؤء المؤرخين وبعض المستشرقين كشهادة صادقة للرجل الذى دخل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وإن هذه الشهادة من أمثال هؤلاء لفى غنى منا عن التعليق ، فقد استقاها أصحابها من واقع مؤلفاته العديدة ، أبلغ حجة ، وأوضح بيان ، وأقوى برهان ، على مدى ما بلغه ابن الخطيب من شهرة سمت الى الأوج ، لما تمتع به من عقلية فذة ذات آراء نافذة .

الفصل الثاني

تراثه الفكري

آثار ابن الخطيب

مؤلفات الوزير العبقرى الغرناطى ابن الخطيب متعددة الفنون ، ما بين شعر ونثر ، وتاريخ ، وطب ، وموسيقى ، وسياسة ، وغيرها ، وهى ـ على وجه التقريب ـ تربو على الخمسين مؤلفاً ، ففى الترجمة التى عقدها ابن الخطيب لنفسه فى آخر كتابه « **الاحاطة فى أخبار غرناطة** » أورد أسماء مؤلفاته ، بيد أن قدراً هاماً من هذه المؤلفات قد أعدم قبله ، على يد الوزير ابن زمرك والقاضى النباهي بغرناطة ، عام 773 هـ (1371 م) ، ومعظم هذه الكتب تتعلق بعلوم الأخلاق والعقائد ، أما مؤلفاته التى بين أيدينا الآن فهي القسم الأدبى والتاريخى فى الغالب ، وقد حاول كثير من المؤرخين والمستشرقين حصر هذه المؤلفات فى فهارسهم ، ولكن حياة ابن الخطيب السياسية ، والتقلبات التى تعرض لها جعلت هؤلاء المستشرقين أو المؤرخين لا يفرقون بين ما ألّفه الرجل فى **المغرب ، وبين ما ألفه فى الأندلس . ويرى « ليفي بروفنسال » أن مؤلفات لسان الدين قد بلغت حوالي ستين كتابا، ولكن لم يبق منها الا الثلث تقريبا.**

هذا ، وإن كتب ابن الخطيب ـ سواء منها ما هو مخطوط لم يحقق بعد ، أم ما حقق ونشر ـ لتحتل مركزاً ممتازاً بين المصادر التاريخية المعتمدة ، لاسيما منها ما يتناول هذا الجزء من الغرب الاسلامى فى المغرب والأندلس ، فقد أنارت السبيل أمام المؤرخين والعلماء ، ويسرت لهم بحوثهم عن هـذه البقاع ، لقلة المصادر الأخرى المعاصرة ، ولأن ابن الخطيب قد عاش هـذه الحقبة من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ونزيد فنقول : إن هذه المؤلفات العديدة ـ بصفة عامة ـ ما تـزال تحظى بالتقديـر والبحث منذ عصر وزيرنا حتى الآن ، لا عند العرب فقط ، بل وعند غيرهم أيضاً ، فذخائر ابن الخطيب تراث مشاع ، يدرسه المستشرقون على اختلاف أجناسهم ، ويجلون كنوزه ، ويبرزونها الى الفكر الانسانى فى العالم، ليشهد طلاب الأدب والمعرفة ما تمخضت عنه عقلية الرجل الواسعة ، مما تحتويه المكتبات العربية والأجنبية منها .

ويجدر بنا أن نعرض هنا موجزاً لأهم آثار ابن الخطيب مما ينسب إليه تأليفه ، سواء أكان موجوداً أم مفقوداً ، وسواء أكان مخطوطاً أم تم تحقيقه ونشره ، والذى لا أعتقد أنه بيان شامل لكل مؤلفاته ، فقد يتسنى لباحث آخر أن يعثر على مؤلفات أخرىله زيادة عما أعرض منها مما فاتنى تحصيله (1) :

1 ـ « الاحاطة فى أخبار غرناطة » .

(تاريخ وتراجم)

من أشهر مؤلفات ابن الخطيب ، توجد له نسخ فى كل من القاهرة (الأزهر ودار الكتب) وتونس ، والرباط ، ومدريد ، والاسكوريال ، وعنوان الكتاب ينبىء عن موضوعه ، فقد تناول فيه أخبار هذه المدينة الشهيرة، تاريخياً وجغرافياً وسياسياً واجتماعياً وأدبياً ، منذ الفتح العربى لاسبانيا حتى عصر المؤلف (دولة بنى الأحمر) ، منتهياً منه إلى عهد السلطان الغني بالله محمد

---

20) هذا القدر من مؤلفات ابن الخطيب اعتمدنا فى ايراده على المصادر التالية :

أ ـ نفح الطيب ، للمقرى ، جـ 4 ص 653 ـ 657 .

ب ـ أزهار الرياض ، للمقرى ، جـ 1 ص 189 ـ 190 .

جـ ـ فهرس بروكلمان C. BROCKELMAN : Geschichte der Arabischen Li teratur : (1948) 13. 11. p. 339.

د ـ فهرس العزيزى CASIRI : Bibliotheca Arabi eo-Hispana Escurialensis

هـ ـ فهرس ديرنبور H. DIRENBOURG : Les Manuscrite Arabes de l'Escurial

F. PONS BIOGYES : Ensayobio - Bibliogr afico sobre los Historiodores y, V. I. & V. III. Geografas Arabigo - Espanales (Madrid 1898) P. 334 - 347.

و ـ ابن الخطيب من خلال كتبه ـ للأستاذ التطوانى (جزءان) المغرب 1948 .

الخامس ثامن ملوك بنى نصر ، حيث وزر له مرتين ، ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر سفراً ، وهي فى مجموعها قسمان ، كما جاء بنهاية المقدمة :

1) « القسم الأول فى حلي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن » ، وهو الخاص بالعاصمة « غرناطة » ، ويشغل هذا القسم عشرين لوحة (أربعين صفحـة) .

2) « القسم الثانى فى حلي الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن » ، وهو لب الكتاب ، ففيه تراجم الملوك والوزراء والقواد والعلماء والأدباء ، ومن إلى هؤلاء ، ملتزماً فى هذا الترتيب الأبجدى لا التاريخى . ويرجع تأليف ابن الخطيب للاحاطة إلى ما قبيل عام 760 هـ ، ولكنه لم يفرغ منه إلا في أواسط عام 765 هـ ، ففى نهاية ترجمته لنفسه يحدثنا عن فراغه من « الاحاطة » بقوله : « والحال إلى هذا العهد ، وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة ، على ما ذكرته » . هذا، وتوجد من الاحاطة نسخة مطبوعة فى جزأين (القاهرة 1319 هـ)، ثم حقق الأستاذ عبد الله عنان الجزء الأول منها ، بتحقيق جديد ، ضمن مجموعة (ذخائر العرب 17) نشر دار المعارف بالقاهرة عام 1955 م .

2 – « **الاماطة عن وجه الاحاطة ، فيما أمكن من تاريخ غرناطة** » .
(تاريـخ)

ورد ذكر هذا المؤلف فى كتاب ابن الخطيب (اللمحة البدرية) ، فربما كان مختصراً لكتابة (الاحاطة) ، على أنه لم يرد اسمه ضمن كتبه التى ذكرها فى هذه الاحاطة .

3 – « **مركز الاحاطة ، فى أدباء غرناطة** » .

مؤلف أورده المستشرقون فى فهارسهم ، ويعتقد أنه تكملة لتراجم الاحـاطـة .

4 – « **ريحانة الكتّاب ، ونجعة المنتاب** » .
(ألوان أدبية وسياسية)

عبارة عن مقتبسات من مؤلفاته الأخرى ، مثل بستان الدول ، ورقم

الحلل ، وغيرهما ، وتوجد لهذا المؤلف الضخم أكثر من مخطوطة ، فى كل من الرباط والقاهرة ومدريد والفاتيكان ، بيد أن نسخاً كاملة منه موجودة فى الخزانة العامة بالرباط ، بالاضافة الى أخرى بمكتبة مدريد الوطنية .

5 ـ « أعمال الأعلام ، فى من بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وما يجز ذلك من الكلام » .

(تاريـخ)

وهو مؤلف فى التاريخ الاسلامى ، يقع فى جزأين ، أولهما خاص بالشرق الاسلامى ، وثانيهما خاص بتاريخ الأندلس ، ولاسيما ملوك الطوائف ، وبنى نصر ، وملوك النصارى ، وذلك على سبيل الايجاز . . . ، وقـد أشار المؤلف فى مقدمته الى أن هذا الكتاب هو آخر مؤلَّف له ، فقد وضعه فى الفترة الأخيرة من حياته وقبيل مقتله بالمغرب ، استجابة للظروف التى كان يجتازها حينئذ ، ثم انقلب الوضع بعدها ، وكانت نهايته على نحو ما سبق تبيانه .

توجد للكتاب نسخة فى مدريد ، نقلا عن نسخة الجزائر ، وقد حقق الجزء الأول منه والخاص بتاريخ الأندلس ـ الأستاذ ليفى بروفنسال سنة 1934 م وحقق الجزء الثانى منه الدكتور العبادى والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ـ وهو الخاص بتاريخ المغرب ، العصر الوسيط ـ (دار الكتاب بالمغرب عام 1967 م) .

6 ـ « الكتيبة الكامنة ، فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة » .

(تراجـم)

هذا الكتاب عبارة عن تراجم لطائفة من الأدباء والعلماء والكتـاب المعاصرين للمؤلف ، متضمناً نماذج من آثارهم شعراً ونثراً ، ويقع المؤلف فى ست وثمانين لوحة بمكتبة مدريد الوطنية ، وهى نسخة من مخطوطة الجزائر ، وقد حقق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس سنة 1963 م ، (دار الثقافـة ببيروت ـ المكتبة الأندلسية 8) ، وأثبت لنا أن ابن الخطيب كان يحرر الكتيبة فى جمادى الآخرة 774 هـ ، معتمداً فى ذلك على قول المؤلف نفسه فى (الورقة 85 ب) : « . . وكل من ذكر الى هذا الحد من المشايخ والأتراب ، فقد تسابقوا تسابق الغراب الى التراب . . ، ومن يجرى ذكره بعد هذا فهم بقيد الحياة لتمام جمادى الآخرة عام أربعة وسبعين وسبعمئة » ، كذلك استنتج المحقق

من دراسته الدقيقة لمقدمة هذا الكتاب أن ابن الخطيب ألفه فى سن عالية بعد أن نفض عن كاهله غبار السياسة ، مستدلا بقول ابن الخطيب فى المقدمة « . . . واستوعبت من صحبة المغرب حصتى ، وختمت بالدعاء قصتى ، ونزلت عن منصتى ، وابتلعت غصتى (21) » .

7 ـ « **اللمحة البدرية ، فى الدولة النصرية** » .
(تـــاريخ)

مؤلف تاريخى موجز ، يدور حول أخبار ملوك بنى الأحمر ، منذ قيام دولتهم حتى عام 765 هـ . . ، والكتاب مطبوع فى القاهرة عام 1947 م .

8 ـ « **رقم الحلل ، فى نظم الدول** » .
(شعـــر)

نظم شعرى فى ألف بيت ، يتناول فيه المؤلف تاريخ الدولة الاسلامية بالمشرق والأندلس ، مذيلا كل قصيدة بشرح لها ، ويقع المؤلف فى مجلد واحد ، طبع بتونس عام 1316 هـ .

وتجدر الاشارة الى أن هذا الكتاب هو نفسه « الحلل المرقومة » ، تبعاً لما جاء فى نسخة مكتبة مدريد الوطنية ، والتى نسخت عن مخطوطـة الاسكوريال (رقم 1776) .

9 ـ « **مفاخرة بين مالقة وسلا** »
(اجتماعيات)

10 ـ « **خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف** »
(تاريخ لرحلة ملكية)

---

21) راجع : (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ص 13 ـ 15 وهذا يخالف ما ارتآه الأستاذ محمد عبد الله عنان فى مقدمة « الاحاطة » من أن « الكتيبة » قد ألفها ابن الخطيب فى باكورة حياته ، ونحن نميل الى الأول .

11 ـ « نفاضة الجراب ، فى علالة الاغتراب »

(تاريخ مغربى)

يقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء .. أولهـا ما زال مفقوداً ، وقد نشر الدكتور العبادى الجزء الثانى منه بمعرفة دار الكاتب العربى بالقاهرة 1968 م . أما الجزء الثالث فقد عثر عليه الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤخرا .

I2 ـ « **معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار** » .

(الذى هو بين أيدينا الآن) .

I3 ـ « **مقنعة السائل ، عن المرض الهائل** » .

(طـب)

عبارة عن رسالة وصف فيها ابن الخطيب الوباء الكبير ، الذى اجتاح الأندلس وحوض البحر الأبيض المتوسط ، عام 749 هـ (1348 م) ، وسقط فيه جمهرة من اعيان الأندلس والمغرب وعلمائهما ، وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها للألمانية بمعرفة مجلة أكاديمية العلوم الباڤارية (1863 م) .

I4 ـ « **الاشارة الى أدب الوزارة** »

(سياســـة)

مؤلف تحدث فيه لسان الدين عن واجبات الوزير ، وما ينبغـــي توافره من الشروط فيمن يتقلد هذا المنصب ، وبالكتاب مقامة «السياسة» ، والكل ما زال مخطوطا بالأسكوريال ، وذلك ضمن المخطوطة (554) ، وقد فرغت من تحقيقـه، مردفا به « مقامة السياسة » لنفس المؤلف . وسيظهر ذلـــك قريبـــا .

I5 ـ « **عمل من طب لمن حب** » .

(طـب)

مؤلف طبي كبير ، تكلم فيه المؤلف عن الأمراض المختلفة ، وشخّص الاصابات ، كما شرح وسائل الوقاية ، وسبل العلاج ، والكتاب مهدى من ابن

الخطيب الى السلطان أبى سالم المرينى ، فقد ألّفه من أجله عام 761 هـ ، وهو مخطوط توجد منه نسخة بمدريد ، ويقع فى 151 لوحة من الحجم الكبير .

16 ـ « **المسائل الطبية** » .

17 ـ « **اليوسفى فى الطب** » .

18 ـ « **رجز الأغذية** » .

19 ـ « **رسالة تكوين الجنين** » .

20 ـ « **الرجز فى عمل الترياق** » .

21 ـ « **الوصول لحفظ الصحة فى الفصول** » .

22 ـ « **رجز فى الطب** » .

23 ـ « **البيطرة والبيزرة** » .

وكلها رسائل طبية (16 ـ 23) ، ألفها ابن الخطيب فى مناسبات شتى ، وأورد ذكرها فى كتابه الاحاطة ، كما أشار الى مُعظمها المقرى فى مؤلفيْه نفح الطيب ، وأزهار الرياض .

24 ـ « **عائد الصلة** » .

(تراجـم)

يحتوى على تراجم لطائفة من الأعلام ، ممن لم يرد لهم ذكر فى كتاب « الصلة » لابن الزبير .

25 ـ « خلع الرسن ، فى وصف القاضي أبي الحسن » .

(رسالة شخصية)

فى وصف القاضى أبى الحسن ، هذه رسالة كتبها ابن الخطيب ، جواباً عن الرسالة التى وجهها إليه هذا القاضى النباهى ، إثر مغادرة الأول للأندلس نهائياً ، والتجائه الى المغرب دون علم سلطان غرناطة يومئذ (الغني بالله محمد الخامس) .

26 ـ « **التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى** » .

(تراجم وتاريخ)

وهو عبارة عن تراجم لأعيان الأندلس فى القرن الهجرى ، وتنويه بمملكة بنى الأحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف ، وقد اعتمد المقرى على هذا الكتاب فى كثير من التراجم التى أوردها فى كتابه « نفح الطيب » ، ويوجد للتاج المحلى نسخة مخطوطة ضمن مخطوط كبير بالاسكوريال (554 الغزيرى).

27 ـ « **بستان الدول** » .

(تاريخ سياسى)

كتاب سياسى شامل ، تحدث فيه المؤلف عن القضاء ، والحرب ، والصناعة وأهلها ، وطبقات الشعب ، وأفرد لكل شجرة ، بحيث ألف من المجموع هذا « البستان » ، ويبدو أن الظروف لم توات ابن الخطيب حتى يكمله .

28 ـ « **السحر والشعر** » .

(أدب)

مجموعة مختارة من شعر المشارقة والمغاربة ، فيما يتعلق منها بالوصايا والمواعظ ، اختارها ابن الخطيب لولده عبد الله حيث أهداه اليه يافعاً ، والكتاب ما زال مخطوطاً فى كل من مدريد والرباط (المكتبة الكتانية) ، وهو لدىّ الآن تحت التحقيق والدراسة .

29 ـ « **كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان** » .

(وثائق تاريخية)

مؤلف تاريخي ، يضم مجموعة من الرسائل السياسية ، بعث بها ابن الخطيب على لسان السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ، الى معاصره السلطان أبى عنان فارس المرينى ، فيما عدا وثيقة عقد زواج نصرى ، صدّر بها كتابه هذا تلو المقدمة ، وقد قمت بتحقيق هذا المؤلف ، من نسخة يتيمة بالاسكوريال برقم(1712 الغزيرى) وتقع فى ستين لوحة ، ونشرته دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة 1968 م .

30 – « **أوصاف الناس فى التواريخ والصلات** » .

(تراجـــم)

كتاب يشتمل على تراجم أدبية تاريخية ، توجد له مخطوطة جيـدة للغاية بمكتبة الاسكوريال بمدريد ، قمت بتصويرها ، وقد فرغت الآن من تحقيقه، وسيظهر قريباً .

31 – « **تافه من جمّ ، ونقطة من يمّ** » .

(شعـــر)

مصنف من أشعار أستاذ ابن الخطيب الرئيس أبى الحسن علي ابن الجيّـــاب .

32 – « **الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة** » .

(شعـــر)

مختارات من شعر صديقه وأستاذه أبى جعفر بن صفوان .

33 – « **جيش التوشيح** » .

(موشحات)

مجموعة من الموشحات الأندلسية ، جمعها ابن الخطيب فى كتـــاب أسماه بهذا الاسم ، ونسبها لأصحابها من أئمة التوشيح فى الأندلس ، وقد نشر فى تونس 1967 م .

34 – « **روضة التعريف بالحب الشريف** » .

(تصوف)

مؤلف فى التصوف ، يعزو المؤرخون الى هذا الكتاب أنه كان وثيقة الاتهام بالالحاد والزندقة ضد ابن الخطيب ، حسبما أملت الأهواء عـلى من صاغوا صك الاتهام للرجل ، حتى سيق إلى الموت من أجله ، وتوجد من الكتاب نسخة مخطوطة بالرباط ، بيد أنها ناقصة ومشوهة (22) .

---

22) لقد عثر الأستاذ عبد القادر احمد عطا على نسخة مخطوطة لهذا الكتاب بالمدينة المنورة ، بمكتبة الشيخ عارف حكمت ، ولما كانت النسخة فى درجة جيدة فقد اتخذها أساساً لتحقيق الكتاب ، مسترشداً معها بنسخة أخرى عثر عليها بمكتبة الظاهرية بدمشق ، الى جانب نسخة أسعد افندى بتركيا المصورة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وقد نشر المحقق « روضة التعريف » بمعرفة دار الفكر العربى بالقاهرة عام 1968 م .

35 ـ « **استنزال اللطف الموجود ، فى سير الوجود** » .
(تـصـوف) .

36 ـ « **فتات الخوان وسقط الصوان** » .
(رسالة شعرية) .

37 ـ « **المختصر فى الطريقة الفقهية** » .
(ديـن) .

38 ـ « **مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة** » .
(رسالة شخصية)

39 ـ « **الألفية فى أصول الفقه** » .
(رسالة دينية شعرية فى ألف بيت) .

40 ـ « **النفاية بعد الكفاية** » .
(رسالة أدبية) .

41 ـ « **كتاب المحبة** » .
(اجتمـاع) .

42 ـ « **المنح الغريب ، فى الفتح القريب** » .
(أدب) .

43 ـ « **تلخيص الذهب ، فى اختيار عيون الكتب** » .
(أدب) .

44 ـ « **مساجلة البيان** » .
(تراجم أدبية) .

45 ـ « **المباخر الطيبية ، فى المفاخر الخطيبية** » .
(أدب) .

هذه المؤلفات (35 ـ 45) وردت فى فهارس المستشرقين ، كما أشار إليها بعض المؤرخين القدامى .

46 ـ « **رسائل فى الموسيقى** » .

47 ـ « **رسائل فى الفلسفة** » .

48 ـ « **رسائل فى الفقه** » .

وهذه رسائل أخرى متفرقة ، ذكرتها الفهارس أيضاً ، ولم يصل إلينا منها شيء .

49 ـ « **الصَّيِّب والجَهَام ، والماضى والكَهَام** » .
(شعـر)

وهو عبارة عن « الديوان » الذى نسبه إليه حاجى خليفة ، فى كتابه « كشف الظنون » ، وتوجد للكتاب ـ بهذا العنوان ـ نسخة مخطوطة فى مكتبة القرويين بفاس . وقد حقق أخيرا بالجزائر ، وتم طبعه .

50 ـ « **طلّ الغمام ، المقتضب من الصيّب والجَهَام** » .
(شعـر)

وهو مختصر لديوانه السابق ، لم يعثر عليه بعد ، ولكن ورد ذكره ضمن مؤلفاته فى الاحاطة .

51 ـ « **طرفة العصر ، فى أخبار دولة بنى نصر** »
(تـاريخ)

الفصل الثالث

عرض وتحليل لمعيار الاختيار

موضـــوع الكـتـــاب

ذكر الوزير ابن الخطيب فى آخر كتابه « الاحاطة » أسماء مؤلفاته اجمالا ، وأورد من بينها مؤلفه «معيار الاختيار، فىذكر المعاهد والديار» على أنه مؤلف قائم بنفسه ، ثم أورده فى باب « المقامات » من مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، وتحفة المنتاب » والذى يشتمل على أكثـر من غرض ولون أدبى تاريخى .

والمعيار الذى نتعرض لدراسته عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكـة غرناطـة ، وأهم مـدن المغرب ، تناول فيـه ابن الخطيـب النواحى الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لمعظم المدن التى أوردها .

لقد بدأ أول ما بدأ بجبل الفتح (جبل طارق) ، وهو يومئذ ضمن مملكة بنى مرين المغربية ، وكان طبيعيا أن يبدأ الوصف بالجبل ، فهو كما يقول المؤلف : « فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم ، وقصـص المهـارق ، وأفق البـارق ، ومتحـف هـذا الوطن المباين للارض المفارق » ، والجبل بالنسبة للبـلاد الاندلسيـة « محط طارقها بالفتح طارق » وله دوره الهام فى حماية البلاد الاندلسية حيث أنه « مسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب والاكباد » .

أما المدن الاندلسية التى أعقبها الجبل فى الوصف ، فهـى ـ حسب الترتيب الذى أوردها به ـ كما يلى :

1 ــ اسطبونــة	Estepona
2 ــ مربلــة	Marabilla
3 ــ سهيــل	Fuenjerola
4 ــ مالقــة	Malaga
5 ــ بليــش مالقــة	Velez Malaga
6 ــ قمــارش	Comares
7 ــ المنكــب	Almuncar
8 ــ شلــوبانيــة	Salobrana
9 ــ برجـــة	Berja
10 ــ دلايــة	Dalias
11 ــ المريــة	Almaria
12 ــ طبــرنــش	Tabernas
13 ــ بيـــرة	Vera
14 ــ مجــاقــر	Mujacar
15 ــ قنتــوريــة	Cantoria
16 ــ برشانـــة	Purchena
17 ــ أوريــة	Oria
18 ــ بليش الشقراء	Velez Robia
19 ــ بسطـــة	Baza
20 ــ اشكــر	Huescar
21 ــ أنــدرش	Andarax
22 ــ شبالــش	Jubles
23 ــ وادى آش	Juadix
24 ــ فنيانــة	Finana
25 ــ غرناطــة	Granada
26 ــ الحمـــة	Alhama
27 ــ صالحــة	Zalia

28 — أليرة ومنتفريد	Illora e Mouteferio
29 — لوشة	Loja
30 — أرجذونة	Archidona
31 — أنتقيرة	Antequera
32 — ذكوان	Coin
33 — قرطمة	Cartama
34 — رندة	Ronda

وأما المدن المغربية فهى حسب ترتيب المؤلف أيضا :

1 — بادس ، 2 — سبتة ، 3 — طنجة ، 4 قصر كتامة ، 5 — أصيلا ، 6 — سلا ، 7 — أنفا ، 8 — أزمور ، 9 — تيط ، 10 — رباط أسفى ، 11 — مراكش ، 12 — أغمات ، 13 — مكناسة ، 14 — فاس ، 15 — مدينة الملك ، 16 آقرسلوين ، 17 — سجلماسة ، 18 — تازة ، 19 — غساسة .

وعلى هذا فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الاندلس مدينة « اسطبونة » ، وانتهى بمدينة « رندة » ، وهو فى تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيبا جغرافيا ولا تاريخيا ، بل ولا أولويا ، فقد كانت مدينة غرناطة مثلا فى المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه ، رغم أنها حاضرة المملكة ، ولها من المبررات ما يجعلها أهلا للمرتبة الاولى من وصفه ، ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى ، أيا كانت دواعى التفضيل ، وكيفما بلغت أهميته .

لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة فى وصفه ، فيتناولها من معظم ما يتعلق بها ، اذ يتحدث عن موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية ، وحالة سكانها الاجتماعية ، فيعطينا صورة واضحة — الى حد بعيد — عن كل مدينة تناولها قلمه .

ففى وصفه لموقع مدينة « قمارش » مثلا ، وما للموقع من أهمية، يقول : انها « مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقد والغفر ،

حيث الماء المعين ، والقوت المعين » . وأما منتجات البلد من محاصيله ، فقد أشار الى أن « به الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين واللـــوز والتين ، والحرث الذى له التمكين » . وفى معرض الوصف الاجتماعـــى يستدرك ابن الخطيب ، ذاما أهل البلد حين يقول : « الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله » .

أما اذا ارتأى مدينة حقيقة بمدح أحوالها الاجتماعية فهو لا يقصر فى حقها ، فمثلا مدينة « المرية » ــ على حد قوله « محط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعـرف تقطيبا » وهى ــ الى جانب تلك الرفاهية وذلك النعيم ، واللذة والسرور المقيم ــ « لم تزل ــ مع الظرف ــ دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك »، فهو حريـــص فى الوصف ، دقيق فى الاحاطـــة ، شأن الخبير بالاماكـــن والبقاع .

نأخذ أيضا مثالا لنهج المؤلف فى الاشادة بالاجتماعيات عند الناس ، وطريقته فى العرض للحقائق ، وتقصيه لها ، حين يذكر عن مدينة برشانة أن « أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى جوههم نضرة وفى أيديهـــم نداوة . يداوون بالسلافة علل الجلافة ، ويؤثرون علل التخلف على لـــذة الخلافة ، فأصبح ربعهم ظرفا قد ملىء ظرفا ، فللمجون به ســـوق ، وللمجون ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق ، وهى تبين بعض بيان عن عن أعيان» ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لهذه المثالب، يذكر أن «وغدها (المدينة) يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجـــور فيه » .

هذا ، وقد ظفرت بعض المدن الاندلسية بعناية خاصة من قلم ابن الخطيب ، كغرناطة ومالقة ، ولا عجب فلكل منهمـــا مركزهـــا الادارى والسياسى ، فالاولى حاضرة ملك بنى الاحمر ، وزهرة المدن الاندلسية ،

ولها على ابن الخطيب أياد لا تنسى ، فكان عليه أن يوفيها حقها ، وأن يعطيها مستحقها ، فيحلها – من وصفه – مكانتها اللائقة ، ولكن هذا لا يمنعه – كمؤرخ صادق – من أن يبرز لنا بعض عيوبها ، سواء فى طقسها الشتوى ، وبردها الذى « يمنع الشفاه من رد التحيات » ، أو الاسعار التى « معيارها يشعر بالترهات » ، وجفاف طباع بعض أهلها ، الذى يصل الى درجة « سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونذالة الديار » ، فهذا المسلك من ابن الخطيب نحو المدن فى وصفها يعطينا فكرة عن صدق قلمه، وتحرره من أى قيد، فغرناطة – وان كانت مقامه بجوار مخدوميه بنى الاحمر، ومحل سلطانه وجاهه – الا أن ذلك كله لا يمنعه من اعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه فى هذا لا تأخذه لومة لائم .

لنستمع اليه فى شأن العاصمة النصرية ، حين يستهل وصف حمرائها: « كرسيها ظاهر الاشراف ، مطل على الاطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف » ، وفى معرض موقع المدينة ، يذكر لنا أن « هواءها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت – الجنوب عنها – الجبال ، فأمن الوبا والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفى جنة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال » ، كما يتحدث مشيدا بنهر شنيل ، وفضله على جنات غرناطة ومروجها ، فيقول « وانحدر منها (جبل سييرا نيفادا) مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط – بين يديها – المرج (فحص غرناطة) الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من وادية بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبات سلوكا تأتى من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة »، ان هذه الروعة البيانية ، ودقة التعابير البلاغية ، جعلت الصورة تتجسم أمامنا ، حتى لنكاد نلمس منها كل جانب .

ثم يعود المؤلف بنا من مطافه الى الحمراء مرة أخرى ، فيكشف لنا عن منشآتها الرائعة ، وجناتها الساحرة ، وكيف أنها مدرج سلالة بنى نصر ، فيقول : « وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات، سافرة عن صفحات القباب المزخرفات ، تقذف بالانهار ــ من بعد المرتقى ــ فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسمارها نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهله ، وربت من ملوك جلة .. »

أما مالقة ــ عاصمة الحموديين الادارسة ــ فيتحدث المؤلف ــ بادىء ذى بدء ــ عن تاريخها كعاصمة لهؤلاء فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، ثم يشيد بشهرتها الصناعية فى الفخار والحرير « .. ومذهب فخارها له على الاماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحلل ديباجها بالبدائع ذات تطريز » . وبعد أن يصور محاصيلها وفواكهها، وما اشتهر به قومها من الاسهام بالبر بأوفر نصيب ، فى تخليص أسرى المسلمين من أيدى النصارى ، ووفرة أعيانها وعلمائها ــ يتناول بعدئذ مساوىء المدينة ، فيقول : « وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد منها مشروبها ، فسحنها متغيرة ، وكواكب أذهانها النيرة متحيرة .. وطعاما لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان .. » الى آخر هذه المساوىء التى أوردها عن مدينة مالقة .

وهكذا نرى أن موضوع الكتاب فى وصفه للبلاد الاندلسية أو المغربية قد اختط فيه ابن الخطيب موضوعية لا تبارى ، وشمولا فى الوصف لمختلف النواحى ، التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية، فى صورة ناطقة نابضة .

منهج ابن الخطيب فى الكتـــاب

عندما كتب ابن الخطيب مؤلفه « معيار الاختيار » اختط فى التحرير طريقة خاصة ، تختلف عن معظم كتاباته فى مؤلفاته الاخرى ، ذلك أنه بدأ بمقدمة معتادة أعقبها بمحاورة ، ثم انتهى الى صميم الموضوع ، فقسمه الى مجموعتين مستقلتين ، وأدرج كل مجموعة تحت مجلس خاص، وقصر المجلس الاول على المدن الاندلسية، ثم أعقبه بالمجلس الثانى فقصره على المدن المغربية . وهكذا بدأ المؤلف كتابه فى المجلس الاول ، بما جرت به عـــادة المؤرخين والمؤلفين المسلمين ، وذلك بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كل هذا فى قالب يتناسب والموضوع الذى يتعرض له ، وهو وصف البلدان .

ثم ثنى بأن الانسان مدنى اجتماعى بطبيعته ، لا يستقيم حاله بدون مجتمع ، وبالتالى لا يقوم المجتمع بدونه ، وأنه ــ أى الانسان ــ أحيانـــا يتخذ سكناه حسبما اتفق ، وأحيانا يكون له ظرف الاختيار ، مرجحا من الامكنة ما غلبت حسناته على سيئاته ، وهذه الامكنة « كثيرا ما تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر » ، وأيا كان ، فانه لا توجد مدينة قد كملت من كافة النواحى كما يقول .

وبعدئذ يتحدث المؤلف عن خبر فى قالب قصة ، فهناك راو استهواه مكان ما ، فنزل به حتى حل المساء ، وحينئذ أبصر شيخا معه تلميـــذه وحماره ، وما استقر المقام بذلك الشيخ حتى حن الى صباه ، وضـــاق بمرارة المشيب ، وقسوة الغربة ، وشعوره بأن نفسه لم تتب بعـــد ، وأخيرا يسأل الله العفو والغفران ، والقربى من رحمته يوم الحســـاب ، معتمدا فى اجابة سؤله على شفاعة شيبه ، ثم تدور مناقشة بين الشيـــخ وفتاه ، وعندها ينبرى الشيخ ، فيحدثنا عن مدى خبراته فى أمور شتـــى

نتيجة علمه وبحثه ، وجوبه بلاد العالم ، ووقوفه بأقطار كثيرة للـــدرس والبحث . وتكون النتيجة أن يتقرب الراوى الى الشيخ ، مطمئنا اياه الى حسن طويته ، وما عليه من خلق يؤهله لان يتشرف بالاستماع الى فيض علمه ، ويسأل الراوى الشيخ ان يصف له بلاد الاندلس ثم بلاد المغرب ، فى دقة وأمانة واخلاص ، فأجابه الشيخ الى طلبه ، وبدأ الراوى بالسؤال عن جبل الفتح (جبل طارق) وهكذا .. حتى انتهى من المدن الاندلسية بمدينة « رندة » . ثم أخبر الشيخ سائله بأن الصبح قد قارب الوجود ، وأنه قد وفاه ــ فى الوصف ــ حسابه ، ولم يبق الا أن يكافئه على هذه الذخائـــر حتى يكون له أليفا ورفيقا ، فينثر الراوى المال بين يدى محدثه فيأخذ منه شاكرا ، وأخيرا يتفقد الراوى الشيخ على ضوء مصباح ، فلا يجد له أثرا ، « فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره » ، فيتأســى الراوى عن هذا الفراق بأن « لكل اجتماع من خليلين فرقة » .

هكذا ينتهى نهج المؤلف فى « المجلس الاول » من كتابه .

أما فى « المجلس الثانى » فان الراوى يلج أحد الاســـواق ، وفى السوق « أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب » ، فى بيع وشراء ، وتحايل للتعايش والكسب ، بمختلف الوسائل والاعمـــال ، فهناك « رقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظـــل بقيطون » ، قد ادعى العلم بالمغيبات ، والتفسير للمشكلات والاحاطـــة بأسرار الطبيعة ، وشفاء العضال من الامراض ، وفى مجال العلوم قد برع، ما بين طب ورياضة وتاريخ وجغرافية، وحديثوتفسير، ومنثور ومنظور، ومنطق وبرهان ، فهو قد جاب الاقطار فى الدرس والبحث والمعرفة . وهنا يجد الراوى بغيته ، فقد ذكره ذلك الرجل بالشيخ الاول ، فأراد أن يستكمل

معلوماته عن البلدان ، فاخترق اليه جموعا بشرية من قصاده ، وخاطبه بقوله : « بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون » فأجابه الشيخ موافقا ، متحفظا بأنه « لا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد » .

وهنا يسأله الراوى عن البلاد المغربية ، بادئا منها بـ « بادس » ، والشيخ يجيبه بمعلوماته عنها، واحدة تلو الاخرى، حتى ينتهى منها بمدينة « غساسة » ، وعندئذ « وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام » كما قال الشيخ ، فقد انفض عن السوق أهله ، ولم يبق الا أن ينثر الراوى دنانيره ، مكافأة طيبة لمحدثه، فيتناول منها ما تستغنى به النفس، وقبل أن يتهيأ للسير لم ينس ـ وهو الحكيم المجرب ـ أن يزود الراوى بنصح منظوم ، فيه مزايا التحلى بالقناعة ، والايمان بالقضاء والقدر ، والتحفظ على السر وكتمانه ، وتحاشى التعثر بالناس ، وتقوى الله تعالى، فالقرب منه رهن بها ، وليست هناك خسارة أفدح من معصية الخالق . وأخيرا نرى الشيخ قد « ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار » وبقى الراوى يتتبع أثر الشيخ، ولكنه تعزى عن فراقه بأن «كل نظم الى انتثار»

بهذا ينهى ابن الخطيب « المجلس الثانى » ، وبانتهاء « المجلس الثانى » ينتهى الكتاب نفسه .

هذا هو المنهج الذى سلكه ابن الخطيب المؤلف فى كتابه « معيار الاختيار » ، وهو منهج ـ كما رأينا ـ قصصى ، دار فى فلك نوع خاص من القصة ، وهذا النوع هو الذى عرف من بين فنون النثر العربى باسم « المقامة » ، متخذا من المحاورة وسيلة لتشويق القارىء والمستمع ، وبخاصة فى صلب الموضوع ، عند وصفه للبلاد .

قيمة الكتاب الادبية ومدى صلتـــه بفـــن المقامات فى الادب العربـــى

ذكرنا أن « معيار الاختيار » قد جاء فى صورة قصة محـــــدودة ، والقصة من أدق الفنون الادبية وأصعبها تركيبا ، وهى تتمتع من بين سائر فنون الادب بالذيوع والانتشار ، لما تشتمل عليه من استمالة القلـــوب ، وامتناع النفوس ، فالآداب العالمية قد زخرت بهذا اللون الغنى منذ أقدم العصور ، ولقد ورثنا عن العرب منذ جاهليتهم ذخيرة نفيسة من القصص، تناولها المشتغلون بالبحث والنقد درسا وتحليلا ، وانقسموا حيالها الـــى فريقين متباينين ، ولكل وجهة ، فبعض المستشرقين فى دراستهم للقصـــة العربية يرون مع « كارادى فو » أنه « لم يسبق الادب العربى أى أدب آخر فىنوع الاقاصيص، بينما البعض الآخر يرىأن العرب ــ ابانحضارتهم ــ زودوا لغتهم بفلسفة الشعوب وعلومهم ، وتجاهلوا أدب القصة تجاهلا يكاد يكون مطلقا ، ومن ثم جهلوا أصول الفن القصصى ، فكانت قصصهم تفقد قيمتها الفنية تبعا لذلك .

وانصافا للحق نقول : ان القصص العربى ذو ألوان مختلفة ، وقد حظيت بعض هذه الالوان بعناية العرب ، فراعوا فى صوغها مقومات القصـــــة ، وأسس بنائها ، فجاء هذا اللون منها تحفة فنية ، لها قيمتها وروعتهـــا ، والبعض الآخر من ألوان القصة العربية فقد معظم هذه الاسس ، فكان مثارا للنقد ، ومحلا للملاحظة .

والقصص العربى أنواع : أشهرها القصص الدينى ، ومصـــــادره التوراة والانجيل والقرآن ، ثم ما جاء على ألسنة الرواة والمحدثين مـــن أخبار الاولين وقصصهم ، مزج فيها القصاص الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة . وكان الهدف من هذا النوع من القصص الوعظ والارشاد فى معظمه ، ترغيبا فى الجنة وترهيبا من النار .

ومن أنواع القصص أيضا عند العرب القصص التاريخى البطولى ، كقصة عنترة بن شداد فى حروبه ، وسيف بنى يزن فى كفاحه ، وحرب البسوس فى طولها وشناعتها ، ومنها القصص العاطفى ، كقصة « قيس المجنون بليلاه » ، وعنترة العاشق لعبلة ، وكثير الواله بعزة ، الى آخر هذه الالوان القصصية ، التى تزخر بها كتب الادب العربى، وبعض التراجم الاجنبية . على أنه من الملحوظ أن القصة العربية تطورت مع الزمن ، واتخذت فى كل عصر طابعا خاصا ، رقيا عما قبل ، مع متانة فى البناء ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، وقد تولد عن التصرف فى تركيبها نوع خاص منها ، وهو ما سمى ــ بين فنون النثر العربى ــ باسم « المقامة » ، والتى ترتكز على العناية بالاسلوب ، وتغليب الشكل على الجوهر ، فمن مقوماتها البلاغية السجع والجناس والكناية والتلاعب بالالفاظ ، ومن مقوماتها اللغوية طائفة ضخمة من شوارد اللغة ، وشواذ القواعد النحوية، ومن مقومات أسلوبها ــ كذلك ــ تضمينها بعض آيات القرآن الكريم ، أو الحديث النبوى ، أو الحكم والامثال ، أو المنثور أو المنظوم ، كما تشتمل المقامة على المعلومات الفقهية والطبية والعروضية والتاريخية ، الى غير ذلك مما عرف فى عصر المولعين بصناعتها .

فالمقامة ــ اذن ــ نوع من الترف الادبى ، وميدان للتدليل على مبلغ معرفة المؤلف بالعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وقد ابتدعها « بديع الزمان الهمذانى » من أشهر أدباء العصر العباسى ، ويقال : انه أنشأ حوالى أربعمائة مقامة ، ولكن لم يظفر الناس منها اليوم بأكثر من نيف وخمسين مقامة ، ومن مقاماته الشهيرة المقامة القريضية ، نسبة الى القريض ، وهو الشعر ، لانه موضوعها ، والمقامة الخمرية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة الدينارية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الكوفية ، ثم قلده فى نفس العصر كثيرون ، ولكن الحريرى كان بارعا فيها أيضا ، ومن مقاماته المعروفة مثلا « المقامة الصنعائية » نسبة الى صنعاء ، احدى مدن اليمن المشهورة .

أما ماذا يقصد بالمقامة عموما فهو تصوير بؤس الادباء ، واحتيالهم أحيانا لكسب عيشهم ، ولها راوية ينقل الخبر ، وبطل تدور حوله حوادثها.

على أن هذه المقامة قد اختفت من الادب العربى بعد ناصف اليازجى اللبنانى فى كتابه : « مجمع البحرين » ، ومحمد المويلحى المصرى فى كتابه ذى الشبه الكبير بالمقامة « حديث عيسى بن هشام » ، اذ لم يعد أحد بعدئذ يلتفت الى هذا اللون الادبى من أدباء عصرنا الحاضر .

هذا ، وقد كان من الطبيعى أن ينتقل فن المقامة من المشرق — منذ ظهوره — الى الاندلس ، وذلك عن طريق الرحلات التى قام بها كثير من الاندلسيين الى الشرق يطلبون العلم ، والذين عادوا الى موطنهم بعد أن درسوا — ضمن ما درسوا — هذا الفن ، فنشروه بين مواطنيهم ، وقد لوحظ أن مقامات بديع الزمان الهمذانى ورسائله — التى أشرنا اليها — قد ذاعت خصوصا فى عهد ملوك الطوائف بالاندلس ، فقد قام بعض الادباء الاندلسيين يومئذ بمعارضة هذه الرسائل والسير على نمطها ، ومن هؤلاء الاديب عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، الذى عارض مقامات البديع، حسبما يروى ابن بسام عنهذا الاديبالمعاصر للمعتضد بن عباد بأشبيلية 434 — 461 هـ (1042 — 1068 م) . كذلك روى ابن بسام عن الشاعر أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالى سنة 420 هـ (1029 م) أن هذا الاخير عارض رسالة للهمذانى فى وصف غلام ، وفى موضع آخر من كتاب الذخيرة يورد ابن بسام أجزاء من مقامتين ، أحداهما لابى حفص عمر الشهيد ، والاخرى لابى محمد بن مالك القرطبى ، وهذان الاديبان عاشا فى عهد المعتصم بن صمادح بمدينة المرية الاندلسية 443 — 484 هـ (1051 — 1091 م) .

ونزيد تعريفا بصلة المغرب بالمشرق حول فن المقامة ، فنذكر أيضا أنه فى أوائل عهد المرابطين بالاندلس انتشرت مقامات الحريرى بالمغرب على مدى واسع ، فى الوقت الذى انتشرت فيه بالشرق ، واهتم علماء

الاندلس بحياة مؤلف هذه المقامات ، فقد روى ابن الابار « أن كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريرى مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم ، حيث حدثوا بها عنه » ، ومن هؤلاء الحسن بن على البطليوسى المتوفى عام 566 هـ (1169 م) وأبو الحجاج يوسف القضاعى البلنسى المتوفى عام 542 هـ (1147 م) .

وقد تابع الاندلسيون الاشتغال بفن المقامة حتى نهاية عهدهم الاندلسى ، أيام بنى الاحمر فى غرناطة ، ومن أشهر أدباء هذا العصر الذين زاولوا هذا الفن الادبى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، بمقاماته العديدة التى أنشأها ، والتى منها : الكتاب الذى نتعرض لدراسته هنا ، وهو « معيار الاختيار » ، ومقامته « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف» و « مقامة السياسة » وغيرها .

— ✱ —

وعلى ضوء ما أوجزنا بيانه عن «المقامة» ومقوماتها ، ومدى صلتها بفن القصة العربية ، وعن دور الاندلسيين فيها بالنسبة للمشارقة، نستطيع أن نزن كتاب « معيار الاختيار » فى هذا الميدان ، فنقول : انه عبارة عن وصف قصصى ، جاء فى صورة مقامة تقليدية ، حاول بها ابن الخطيب ـ كما حاول فى غيرها ـ أن يجارى بها من سبقوه فى هذا الميدان ، وفى سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان ، وبخاصة مقدمة كل من المجلسين ، ونهايتهما ، حيث انصرف فيهما الى حد ما عن المعنى الى اللفظ مما أفقد المقدمة ـ خاصة ـ قيمتها الادبية ، من أديب مثل ابن الخطيب .

ولكن عندما تناول صلب الموضوع ، فانه ـ وان كان قد عنى بالاسلوب أيضا ـ الا أن الوصف للمدن عموما قد جاء تحفة فنية رائعة ،

فقد تناولها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، وتمكن ــ رغم قيود السجـــع والجناس والكناية وغيرها ــ من ابراز هذه المعالم فى صورة مشوقة .

ومع ذلك ، نرى أن ابن الخطيب لو أطلق لنفسه العنان فى هذا المؤلف التاريخى ، وحرر نفسه من هذه القيود اللفظية التى كبل بها قلمه ــ لجاء وصفه للبلدان أبدع فنا ، وأشمل موضوعا ، فلا شك أنه حصر نفسه فى نطاق ضيق ، كانت نتيجته الحتمية أن فوت علينا المؤلف انطلاقاته المعروفة عنه ، فى تقصى المعانى ، والاحاطة بشتات الموضوع الذى يتعرض له .

قيمـــة الكتاب كوثيقة تاريخية

توجد لكتاب « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » أكثر من مخطوطة ، فى الاسكوريال والرباط ، وفاس ، وقد ورد هذا الكتاب ضمـــن مؤلف آخر من مؤلفات ابن الخطيب ، وهو « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » (554 الاسكوريال) ، كما ورد ضمن مؤلفه « ريحانـــة الكتاب ونجعة المنتاب » حيث أورده المؤلف فى باب « المقامات » .

وقد ألف ابن الخطيب « معيار الاختيار » هذا عندما نفى الى المغرب مع سلطانه الغنى بالله ابن الاحمر المعروف بمحمد الخامس ، حيث حلا ضيفين على السلطان أبى سالم ملك المغرب (محرم 761 هـ ــ 1359 م) ولكن ابن الخطيب لم يذكر فى الكتاب تاريخ تأليفه بالضبط ، وانما عرفنـــا الفترة التى ألفه خلالها من مؤلف آخر له ، حيث ذكر به أنه دون بعض كتبه خلال سنوات المنفى الثلاث التى قضاها بمدينة سلا بالمغرب (1) . (760 ــ 763 هـ) = (1358 ــ 1361 م) ، ومن بين تلك الكتب « معيار الاختيار » ، وقدأدرج الغزيرى هذا المؤلف تحت رقم 1777 بفهـــرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

---

(1) ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، مكتبـــة الاسكوريال بمدريد لوحة (67) .

ولما كنت قد قارنت ــ أثناء البحث والدراسة ــ بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب ، والتى وجدتها فى كل من مدريد والرباط وفاس والقاهرة والفاتيكان ، فقد بان لى أن أكملها وأوفاها ــ كما ذكرت ــ مخطوطة الاسكوريال بأسبانيا (رقم 554) ، وقد ذكر ناسخ هذه المخطوطة أنه كتبها عام 173 هـ (1468 م) ، أى بعد تدوين ابن الخطيب للكتاب نفسه بحوالى 112 عاما تقريبا ، وبعد وفاة المؤلف بنحو 97 عاما .

وقد نشر المستشرق الاسبانى « سيمونيت » القسم الاول من « معيار الاختيار » ، بعد أن فصل عنه المقدمة التى أشرنا الى مضمونها ، وهذا القسم هو الخاص بمدن مملكة غرناطة ، وعددها أربع وثمانون مدينة ، تحت عنوان « وصف مملكة غرناطة ، فى عهد بنى نصر » (1) . ثم نشر باقى الكتاب ــ وهو الجزء الخاص بمدن المغرب ــ المستشرق الالمانى « موللر » ، متضمنا وصفا لجبل الفتح ، وسبتة ، ومراكش ، وأغمات ، فى مجموعة خاصة (2) . ولم يفت هذا المستشرق أن ينوه ببعض الاخطاء التى وقع فيها زميله الاسبانى « سيمونيت » عند تحقيقه للجزء الخاص بمدن الأندلس ، وان كان هو بدوره قد وقع فى عدة أخطاء أثناء التحقيق ، وذلك نتيجة عدم التمرس بالاساليب العربية ، ولا سيما عبارة ابن الخطيب كطابع عام لما كانت عليه اللغة فى العصور الاسلامية الوسطى .

وتجدر الاشارة الى أن قيمة « المعيار » تمكن فى التعريف بالوضعية التى كانت عليها كل من مملكتى بنى نصر وبنى مرين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن ابن الخطيب قد حدثنا ــ بحق أيضا

---

(1) راجع :

Descripcion del Reino de Granada bajo la, Dominacion de las Nazaritas (Madrid, 1861).

(2) راجع :

Beitaage zur Geschichte des Westlichen, Araber (Munchen, 1866).

خصوصا ــ عن عاصمتى كل من الاندلس والمغرب فى عصره (غرناطة وفاس) ، سالكا نفس الموضوعية تجاه كليهما ، دون أن يخفى لوما فيما لاحظه من مثالب بالنسبة لهاتين العاصمتين .

ونحن نعتقد من جانبنا أن المؤلف ــ عند تدوينه لهذا الكتاب ــ قد اعتمد على مصادر ثلاثة :

1 ــ زيارته للمدن التى تناولها قلمه :

فمن المعلوم أن ابن الخطيب كان قد وزر للسلطان يوسف الاول النصرى 733 ــ 755 هـ (1333 ــ 1354 م) ثم لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس 755 ــ 760 هـ (1304 ــ 1359 م) ثم ــ للمرة الثانية ــ عام 762 ــ 793 هـ (1361 ــ 1392 م) ، وطبيعة المنصب تقتضى تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الاندلسية ، للوقوف على أحوالها ، وحركة دولاب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وارشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زياراته . كما أنه رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الاول فى زيارته التاريخية ، والتى بدأها من غرناطة فى 17 محرم 748 هـ ــ 1347 م ، صحبة الحاشية ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذه الرحلة ، سماها : « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف » جاء فيها أن الركب الملكى ــ بعد أن غادر العاصمة ــ وصل الى مدينة وادى آش ، وهناك استقبلهم الاهالى استقبالا رائعا ، ثم اتجهت القافلة شرقا مارة ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة ، وبرشانة ، وهنا صور ابن الخطيب الحالة التى كان يعانيها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية والسيول الموسمية ، ثم زار الركب مدينة « بيرة » ، أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف ، من جراء هجوم الاسبان المفاجىء بين حين وآخر ، كما صور لنا وعورة موقع المدينة ،

وصعوبة مسالكها ، حيث اضطروا للاسترشاد بدليل ماهر ، يكشف لهم طريقهم فى الجبال بين الروابى والوهاد .

وأخيرا يعود الموكب الى قاعدته « غرناطة » ، راجعا من طريق آخر ، مارا بثغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الاسطول الحربى، واستقبل رجاله فى زيهم الرائع الانيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، مثل : بجانة ، وبرشلونة وفنيانة ، وينتهى المطاف بمدينة وادى آش مرة أخرى ، ومنها الى العاصمة « غرناطة » (1) .

وبذلك أتيحت فرصة رسمية هامة للوزير ابن الخطيب ، حيث وقف على أحوال هذه المدن الاندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون لنفسه ودون فى مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطانى التاريخى .

أما بالنسبة للمدن المغربية فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يتجول فى البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ، ولاسيما رجال الادارة والعلماء والخاصة ، ولابد أنه شافه الكثير منهم برغبته فى الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعياتهم ، وكانت المعاينة لديه وسيلة هامة فى وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجلاء الشكوك .

لقد زار ابن الخطيب المغرب لاول مرة سفيرا من لدن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر ، الى سلطان المغرب عام 755 هـ = 1354 م .

---

(1) راجع التحقيق الحديث لهذه الرحلة فى كتاب « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » للدكتور أحمد مختار العبادى ، طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ، حيث تقع هذه الرحلة بين هذه المشاهدات ص : 25 — 35 .

ثم رجع الى المغرب مرة أخرى ، ولكن منفيا مع سلطانه المخلوع الغنى بالله ابن الاحمر ، وذلك فى محـرم 761 = 1359 م ، وفى هـذه المرة مكث بالمغرب ثلاث سنوات تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك فى موضعه ، وفى تلك الاثناء زار بعض المدن المغربية ، ودون بعض رحلاته يومئذ فى كتابه المعروف باسم « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » ، الذى وضعه بالمغرب مع بعض الكتب الاخرى ، التى منها كتابنا « معيار الاختيار » .

وأخيرا استقر ابن الخطيب بالمغرب حينما فر من الاندلس ، حيث شعر بما يدسه له خصومه عند السلطان الغنى بالله ، على نحو ما هو معروف من تاريخ مأساة هذا الوزير ، فوصل المغرب عام 773 هـ = 1371 م ، وبقى به حتى نكب وقتل عام 776 هـ = 1375 م .

فهذه ثلاث زيارات قام بها المؤلف للمغرب ، سفيرا ، فمنفيا ، ففارا ناجيا بحياته أخيرا ، وتعتبر فترة النفى ـ من بين هذه الزيارات الثلاث ـ فترة البحث والدرس والتأليف عند ابن الخطيب ، فقد منح الرواتب وأقطع الاراضى ، واستقرت نفسيته الى حد سمح له بمواصلة تآليفه .

أما المرة الاولى فكان وقتها أضيق من أن يتسع للتجوال عبر المدن المغربية ، فهـو حينئذ سفير منوط به أمر رسمى ، وذو قيـود وحدود مـرسـومـة .

وأما فى المرة الاخيرة حيث استقر نهائيا بالمغرب ؛ فنرجح أن ابن الخطيب لم يتجه كثيرا للبحث والتدوين ، فقد كانت الهزات السياسية بالمغرب تتناوشه ذات اليمين وذات الشمال ، بفضل مواصلة خصومـه ـ بغرناطة ـ السعى فى القضاء عليه ، وعلى رأسهم سلطانه القديـم « الغنى بالله » والذى تأثر الى أبعد حد بسعاية هؤلاء الخصوم ، ومـع هذا فقد ألف ابن الخطيب ابان هذه الفترة كتابه « أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام » ، استجابة للظروف الجديدة التى أملت عليه اصدار هذا المؤلف

2 ــ الاطــلاع والسمــاع :

وهو المصدر الثانى مــن المصادر التى اعتمد عليها ابــن الخطيب فى تدوين كتابه « معيار الاختيار » ونعنى به قراءته لكتب من سبقــوه من المؤرخين والكتاب فى أوصاف المدن الاندلسية والمغربية على الخصوص، وفى تاريخها الحافل بالاحداث ، وكذلك سماعه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فى أحوال المغرب منذ القدم، وأحداث المملكة الاسلامية بالأندلس، لا سيما وأنه تربى فى أحضانها ، ودرج بين ربوعها ، وجاس خلال ديارها ، فحديثه عنها حديث الخبير العالم ، ووصفه لها وصف المحيط بأسرارها . هذا بالاضافة الى مجالس ابن الخطيب العلمية ، وندواته الثقافية ، والتى كانت كثيرا ما تجمع رواة الاخبار ، وحفظة التاريخ .

3 ــ التقارير الادارية الرسمية :

وابن الخطيب كوزير ، وأمين سر السلطان ، لا بد وأن يطلع علــى كافة التقارير الرسمية ، والرسائل الادارية ، التى كانت ترد عادة الــى الديوان من عمال وحكام الاقاليم ، فهذه التقارير وتلك الرسائل وثائق تاريخية لها أهميتها البالغة ، اذ على أساسها ــ فى العادة ــ تدار سياسة الدولة ، وتوجه الامور الوجهة الصالحة ، لذلك نرى أن ابن الخطيب قــد استفاد الى حد كبير من هذه الوثائق ، بالاضافة الى المصدرين السابقين، وبذلك أمكنه أن يعطينا هذه الاوصاف لتلــك المدن فى مؤلفه « معيــار الاختيــــــار » .

هذا ، وينبغى أن نشير اخيرا الى أن شخصية المؤلف وعلاقاتهــا بالآخرين لا بد وأن تنعكس على كتاباته ، وهذا ما وضح من خــلال أوصاف ابن الخطيب لبعض البلاد وأهلها ، فانه وان كان قد تعمق فــى البحث على نحو دقيق ، وحلل الاسباب والمسببات حتى جاء الموضوع

وثيقة تاريخية يعتمد عليها الى حد بعيد ــ وبخاصة اذا اعتبرنا قلة المراجع التاريخية التى تناولت العصر الذى عاشه ابن الخطيب ، وذلك فى أخبار كل من الاندلس والمغرب ــ الا أنه لا ينبغى أن نغفل الدوافع الشخصية ، والنزعات النفسية للمؤلف أيا كان ، فهذه وتلك لا بد وأن يحسب حسابهما ، ويقام وزنهما ، فى تقييم مثل هذه الوثيقة التاريخية ، لرجل وزير كابن الخطيب ، قضى حياته بين تيارات السياسة ، تتنازعه الاهواء والدوافع ، يعطف على مسلكة البعض ، وينقم على خطته البعض الآخر ، وبالتالى يكون اتجاهه متباينا نحو كليهما ، وما يصدق على الافراد يصدق على مجموعة منها تؤلف بلدا أو مدينة .

وللتدليل على هذا التأثر النفسى عند الكاتب ، وانعكاسه على ما يحرره ، نذكر أن ابن الخطيب نفسه قد صب جام غضبه على مدينة سلا المغربية ، فى رسالته المسماة « مفاخرات بين مالقة وسلا » ، رغم أنه أقام بها طيلة فترة النفى الاولى ، قرابة ثلاث سنوات ، واحتوته عزيزا مكرما ، ولكن كان قد حدث احتكاك بينه وبين بعض الفقهاء من أهل هذه المدينة ، الامر الذى ساقه الى تأليف رسالة خاصة ، فى النيل من هؤلاء الفقهاء ، وهى المسماة « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » ، فى أسلوب يفيض اقذاعا ونيلا غير كريم من الخصوم ، وعليه ــ بالتالى ــ فلم يكن من المنتظر أن يرتفع ابن الخطيب بمدينة سلا فى المفاخرات مع مالقة .

فنخلص من هذا الى أن ابن الخطيب لم يسلم ــ الى حد ما ــ من تحامل فى وصفه لبعض المدن الاندلسية والمغربية فى كتابه « معيار الاختيار » ، وبخاصة عندما كان يتناول أحوال سكانها الاجتماعية . بيد أن هذا التحامل الضئيل المفترض لن يطغى بحال على ما للكتاب من قيمة تاريخية كبرى ، ولا يمنع الدارسين لتاريخ المغرب والاندلس ــ فى الفترة التى عاصرها ابن الخطيب ــ من الاستفادة من « معياره »

هذا الى حد بعيد . . ، اذا ما عن لهم الكشف عن الحالة الاجتماعية بهذيـــن القطرين فى ذلك العصر ، وعن الاقتصاد ، والمحصولات الزراعية ، وأهمية الاسواق ، والصناعة الاندلسية ودورها ، وما الى ذلك مما تناوله المؤلف ، تجاه البلاد الاندلسية والمغربية ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى .

الفصل الرابع

كتاب

معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار

المجلس الأول

اللوحة الاولى من مخطوط « معيار الاختيار » بالاسكوريال (الغزيرى 1·777)

اللوحة الاولى من « المجلس الثانى »

اللوحة الاخيرة من « المجلس الاول »

اللوحة الاخيرة من « المجلس الثانى » نهاية المخطوط

معيـــار الاختيار ، فى ذكـــر المعاهـــد والديـــار

المجلس الاول :

(97 : أ) بسم الله الرحمن الرحيم ٠ صلى الله على سيدنا محمد ٠

الحمد لله الذى انفردت صفاته بالاشتمال علـــى أشتات الكمال ، والاستقلال بأعباء الجلال ، المنزه عن احتلال الحلال ، المتصفة الخـــلال بالاختلال ، المعتمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال ، متصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والاوضاع والصنائع والاعمال ، على التفصيل والاجمال . فمن قام خيره بشره دخل تحت خطة الاعتدال ، ومن قصر خيره عن شره ، كان أهلا للاستعاضة والاستبدال ، ومن أربى خيره على شره وجب اليـــه شد الرحال ، والتمس بقصده صلاح الحال . وكثيرا ما اغتبـــط الناس بأوطانهم فحصلوا فى الجبال على دعة البال ، وفازوا فى الرمال بالآمال ، (97 : ب) حكمة (منه) فى اعتمار ربع الشمال ، وتفيـــىء أكنافه عـــن اليمين والشمال ، الى أن يدعو أهل الارض لموقف العرض والسؤال ، ويذهل ــ عن الاهل ــ عظيم الاهوال . والصلاة على سيدنا (ومولانا) (1) محمـــد المصطفى الـــذى أنقـــذ بدعوتـــه الوارفة الظلال من ظلمـــات الضلال ، وجاء برفع الاغلال ، وتمييز الحرام من الحلال . والرضا عمن له من الصحب والآل ، **(موارد الصدق عند كذب الآل) (2)** ٠

---

1) زيادة فى « س ، ط »

2) زيادة فى « س » .

أما بعد، ساعدك السعد، ولان لك الجعد (3)، فان الانسان ــ وان انصف بالاحسان ، وابانة اللسان ، لما كان بعضه لبعض فقيرا ، نبيها كان أو حقيرا . اذ مؤنه (4) التى تصلح بها حاله . لا يسعها انتحاله ــ لــزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقر بها قراره ، ويتوجه اليها ركونه وفراره ، اذا رابه أضراره . ويختزن بهــا أقواته التى بها حياته ، ويحاول منها معاشه الذى به انتعاشه . فان كان اتخاذها جزافا واتفاقا ، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقا ، تجاول (5) شرها وخيرها ، وتعارض نفعهــا وضيرها ، وفضلهــا ــ (98 : أ) فى الغالب ــ غيرها ، وان كان عن اختيار ، وتحكيم معيار ، وتأسيس حكيم ، وتفويض للعقل وتحكيم ، تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر ، وكانت مساوئها ــ بالنسبة الى محاسنها ــ تغتفر ، اذ وجود الكمال فاضــح للآمال ، ولله در القائل :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المــرء فخرا أن تعد معايبــه

وبحســب ذلــك :

حدث من يعنى بالاخبار ينقلها ، والحكم يصقلها ، والاسمار ينتقيها، والآثار يخلدها ويبقيها ، والمجالس يأخذ صدورها والآفاق يشيم (6) شموسهــا وبدورها ، والحلل يعرف دورهــا ، ويأكل قدورها ، والطرف يهديها ، والخفيات يبديها . وقد جرى ذكر تفضيل البلدان ، وذكر القاصى والدان ، ومزايا الاماكــن ، وخصائص المنازل والمساكن ، والمقابــح والمحاسن ، والطيب والآسن (7) .

---

3) الجعد : فى الاصل هو الشعر غير المنسق ، والسياق ينصرف الى اللئيم البخيل.
4) فى نسخة (س) « مؤنتة » بدل « مؤنه » .
5) تجاول : يقال ، تجاول القوم فى الحرب ، اى جال بعضهم على بعض .
6) يشيم : يعلم ، يقصد انه ذو دراية بمطالع الشمس والقمر فى هذه البلاد
7) الآسن : من الماء المتغير الطعم واللون والرائحة .

قال : ضمنى الليل وقد سدل المسح راهبه ، وانتهب قرص الشمس من يد الامس ناهبـــه ، ودلفت جيوشه الحبشية (98 : ب) وكتائبـــه ، وفتحت الازهار بشط المجرة كواكبه ، وجنحت الطيور الى وكونهـــا ، وانتشرت الطوافات بعد سكونها ، وعوت الذئاب فوق هضابها ، ولوحت البروق ببيض عضابها ، وباهت الكف الخضيب بخضابها ، وتسللت اللصوص لانتهاز فرصها ، وخرجت الليوث الى قسمها وحصصها ، فى منـــاخ رحب المنطلق ، وثيق الغلق ، سامى السور ، كفيل بحفظ الميسور ، يأمن ــ بـــه الذعر ــ خائفه ، وتدفع ــ معرة السماء ــ سقائفه ، يشتمل على مأوى الطريد ، ومحراب المريد ، ومرابط خيل البريد (8) ، ومكاسع الشيطـــان المريد . ذى قيم كثير البشاشة ، لطيف الحشاشة ، قانع بالمشاشة . يروح ويشى ، ويقف على ريب الاعيان وأعيان الريب فلا يشى . بـــر فأكثر ، ومهد ووثر ، وأدفأ ودثر ، **(ورقى بسور استنزاله فأثر) (9)** .

فلما أزحت الكلفة ، وأقضمت جوادى العلفة ، وأعجبتنى ــ من رفقاء الرفق ــ الالفة ، رمقت فى بعض السقائف آمنا فى زى خائف ، وشيخا طاف منه بالارض طائف ، وسكن حتى اليمامة والطائف . جنيب (99 : أ) عكاز ، ومثير شيب أثيث الوفرة ، وقسى ضلوع توتر بالزفرة ، حكم له بياض الشيب بالهيبة ، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش ، كما اختلط روم وحبش . والى يمينه دلو فاهق (10) ، وعن يساره تلميذ مراهـــق ، وأمامه حمار ناهق ، وهو يقول :

هـــم أسكنونا فى ظلال بيوتهـــم ظـــلال بيـــوت أدفـــأت وأكنـــت
أبـــوا أن يملونا ، ولو أن أمنـــا تلاقى الذى يلقون منـــا لملـــت

---

8) مكاسع : مطارد ، مكان الطرد .
9) زيادة فى نسخة « س » .
10) فاهق : ممتلىء .

حتى اذا اطمأن حلوله ، وأصحب ذلوله (11) ، وتردد الى قيم الخان ــ زغلوله (12) ، واستكبر لما جاءه ــ بما يهواه ــ رسوله ، استجمع قوته واحتشد ، ورفع عقيرته وأنشد :

أشكو الى الله ذهاب الشباب ... كم حسرة أورثني واكتئاب
سد عن اللذات باب الصبا ... فزارت الاشجان من كل باب
وغربة طالت فما تنتهي ... موصولة اليوم بيوم الحساب
وشر نفس كلما هملجت (13) ... في الغي لم تقبل خطام المتاب
يا رب شفع في شيبي ولا ... تحرمني الزلفى وحسن المآب

ثم أن ، والليل قد جن ، فلم يبق ــ في القوم ــ الا من أشفق وحن ، وقال ــ وقد هزته أريحية ــ (99 : ب) : على الدنيا سلام وتحية ، فقد نلنا الاوطار ، وركبنا الاخطار ، وأبعدنا المطار ، واخترقنا الاقطار (14) ، وحلبنا الاشطار (15) . فقال فتاه ــ وقد افترت عن الدر ثغره ، مستثيرا لشجونه ، ومطلعا لنجوم همه من دجونه ، ومدلا عليه بمجونه ــ : وماذا بلغ الشيخ من أمدها ، ورفع من عمدها ، حتى يقضي منه عجب ، أو يجلى منه محتجب ؟ فأخذته حمية الحفاظ لهذه الالفاظ ، وقال : أي بني ، مثلي من الاقطاب ، يخاطب بهذا الخطاب ! ! وأيم الله لقد عقدت الحلق (ولبست من الدهر الجديد والخلق) (16) ، وفككت الغلق ، وأبعدت في الصبوة الطلق ، وخضت المنون ، وصدت الضب والنون ، وحذقت الفنون ،

---

11) ذلوله : دابته السهلة القياد .
12) زغلوله : غلامه الخفيف السريع .
13) هملجت : الهملجة ، المشي في سرعة .
14) في نسخة « س » وافترقنا ، ولعلها في نسختنا أصوب .
15) حلبنا الاشطار : يقصد جربنا خير الدهر وشره ، فعرفناهما .
16) زيادة في « ط ، س » .

وقهرت ــ بعد سليمان ــ الجنون ، وقضيت الديون ، ومرضت لمرض العيون . وركبت الهمالج (17) ، وتوسدت الوذائل (18) والدمالج ، وركضت الفاره ، واقتحمت المهالك والمكاره ، وجبت البلاد ، وحضرت الجلاد ، وأقمت الفصح والميلاد . فعدت من بلاد الهند والصين ، بالعقل الرصين ، وحذقت بدار قسطنطين (19) كتاب اللطين (20) ، ودست مدارس أصحاب الرواق (21) ، ورأيت غار الارواح وشجر الوقواق ،

---

17) الهمالج : الابل تمشى فى سرعة .

18) الوذائل : ج وذيلة ، وهى الرشيقة من النساء .

19) قسطنطين : ملك من ملوك الروم ، سميت حاضرة ملكه باسمه (القسطنطينية) وهى مدينة قديمة كانت مسورة بأسوار حصينة تبلغ المائة ، احدها (باب الذهب) ، انظر ياقوت الحموى فى معجم البلدان ج 15 ص 347 .

20) كتاب اللطين : يعنى به « اللاتينية » .

21) اصحاب الرواق : يقصد الرواقيين ، وهم فرقة من الفلاسفة القدماء ، ينسبون الى الرواق ، الذى كان يعلم زينون ــ Zenon الرواقيين Stoiciens تحته ، وقد نشأت هذه الفرقة فى القرن الرابع قبل الميلاد ببلاد الاغريق ، تنقسم عندهم الفلسفة الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق ، ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، كما أنهم لا يميزون بين المادى والروحى ، وان الكون يسوده النظام، ويسوسه المنطق ، وان على الانسان ان ينظم نفسه ، فيحتل مكانه فيه . وبهذا تحققت عندهم فكرة الوحدة الكونية ، فى وقت لم يكن العلم الطبيعى عند الاغريق كثيرا ، ولكن كان حدسهم شديدا ، ونظراتهم الثاقبة كثيرا ما كانت تصيب .

أما عن زينون الرواقى فهو مؤلف هذا المذهب (نحو 340 ــ 265 ق م) فقد ولد فى بلدة كتيوم Cition بجزيرة قبرص ، وجاء بعد الى اثينا ، وهو من أصل فينيقى ، وأكثر من وسعوا المذهب كانوا اسيويين اكثر منهم اغارقة ، ويعد المذهب آخر مجهود فلسفى فى اليونان الوثنية .

هذا ، وممن آمن بوحدة الكون فى العصور الوسطى كتاب الاديان الثلاثة ، فمن المسلمين ابن رشد (1126 ــ 1198 م) ، ومن المسيحيين كثيرون ، ومن اليهود القباليون Kabbalists ، ثم جاء عصر النهضة بأوربا فأحيا مبدأ الوحدة الكونية بين اهلها ، وانبرى عدة فلاسفة ينادون بها ، متأثرين بالفلسفة الافلاطونية ، وبما رسمه المذهب من آداب ، ومنهم شكسبير ، وشلر ، وكنط. راجع : د. احمد زكى (مجلة العربى) عدد 134 يناير 1970 م .

وشريت حلل اليمن (100 : أ) ببخس الثمن (22) ، وحللت من عـدن (23) حلول الروح من البدن ، ونظرت الى قرن الغزالة لما شدن (24) ، وأزمعت عـن العراقين (25) ، سرى القين ، وشربت من ماء الرافديـن باليدين ، وصليت بمحراب الدمنى ركعتين ، وتركت الاثر للعين ، ووقفت حيث وقف الحكمان (26) ، وتقابل التركمان (27) وأخذت بالقدس ، عن الحبر الندس ، وركبت الولايا ، الى بلاد العلايا (28) ، بعد أن طفت بالبيت الشريف ، وحصلت بطيبة على الخصب والريف ، فى فصل الخريف ، وقرأت بأخميم (29) علم التصريف ، وأسرعت فى الانحطاط الى الفسطاط (30) ،

---

22) فى نسخة س « بأبخس ثمن » وكلاهما بمعنى .

23) عدن : عاصمة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ، تقع على ساحل البحر الاحمر جنوب غربى الجزيرة العربية ، لها شهرة تجارية واسعة بفضل موقعها .
انظر : معجم البلدان ، للحموى ، ج 13 ص 89 .

24) فى نسخة (س) « اذا » بدل « لما » ، ولعلها فى نسختنا أصوب .

25) العراقين : البصرة والكوفة بالعراق ، مدينتان لهما أصالتهما العلمية ولاسيما فى عصر الامويين والعباسيين .

26) الحكمان : هما أبو موسى الاشعرى ، وعمرو بن العاص ، لما احتكم اليهمـا على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، عقب وقعة صفـين (37 هـ — = 657 م) فى أمر الخلافة ، وانتهت بتولى معاوية .
انظر « وقعة صفين فى :
ا) المسعودى فى « مروج الذهب » ج 2 ص 20 — 22 .
ب) الطبرى — فى « تاريخ الامم والملوك » ج 6 ص 33 — 43 .

27) التركمان : قبيلة اخضعها التتار ، تعرف منذ القرن الثانى عشر الميـلادى ، وتعيش الآن فى تركستان الغربى ، وايران ، وما وراء القفقاس .

28) العلايا : مدينة ساحلية بآسيا الصغرى ، اسسها علاء الدين كيقوباذ عـام 1220 م .

29) أخميم : مدينة اثرية على شاطىء النيل الشرقى بمصر ، محافظتها « سوهاج »
انظر : معجم البلدان ج 1 ص 123 .

30) الفسطاط — مدينة انشاها الفاتح لمصر عمرو بن العاص عام (20 هـ = 640 م) مكانها « مصر القديمة » حاليا احدى ضواحى القاهرة .

والمصر الرحب الاختطاط ، وسكنت مدينة الاسكندرية (31) ثغر الرباط ، وعجلت بالمرور الى التكرور (32) ، فبعث الظل بالحرور ووقفت بأشبانية الى الهيكل المزور ، وحصلت بافريقية على الرفد غير المنزور ، وانحدرت الى المغرب ، انحدار الشمس الى المغرب ، وصممت تصميم الحسام الماضى المضرب ، ورابطت بالاندلس ثغر الاسلام ، وأعلمت بها تحت ظل (33) الاعـــــلام .

فآها ــ والله ــ على عمر مضى ، وخلف مضضا (100 : ب) وزمن انقضى ، وشمل قضى الله من تفرقه ما قضى ، ثم أجهش ببكائه ، وأعلن باشتكائه ، وأنشـــد :

لبسنا فلـــم نبل الزمان وأبلانـــا ... يتابع أخرانا ــ على الغى ــ أولانا
ونغتر بالآمال ، والعمر ينقضـــى ... فما كان ــ بالرجعى الى الله ــ أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى ... فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانـــا
جزينـــا صنيع الله شر جزائـــه ... فلم نرع ما ــ من سابق الفضل ــ أولانا
فيـــا رب عاملنـــا بما أنت أهلـــه ... من العفو ، واجبر صدعنا ، أنت مولانا

ثـــم قـــــال :

لقـــد مات اخوانـــى الصالحـــون ... فمالـــى صديق ولا لـــى عمـــاد
اذا أقبـــل الصبح ولى الســـرور ... وان أقبـــل الليل ولـــى الرقـــاد

---

31) الاسكندرية : العاصمة التجارية لجمهورية مصر العربية ، وتقع على ساحل البحر المتوسط ، بناها الاسكندر المقدونـــى .
انظر ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 182 .

32) تكرور : شعب من الزنج يسكن الجزء الاكبر من وهاد « فوتة » السنغاليـــة ، ويعرف باسم Foucouleur وفى نسخة (س) « تكرور » بدل « التكرور ».

33) فى نسخة اخرى « ظلال » بدل « ظل » ، وكلاهما بمعنى .

فتملكتنى له رقة ، وهزة للتماسك مسترقة ، فهجمت على مضجعه هجوما أنكره ، وراع شاءه وعكره (34) ، وغطى بفضل ردنه سكره ، فقلت له : على رسلك أيها الشيخ ، ناب (35) حنت الى حـوار (36) ، وغريب أنس بجوار ، وحائر اهتدى بمنار ، ومقرور قصد الى ضوء نار ، وطارق لا يفضح عيبا ،(**ولا يثلم غيبا**)ولا يهمل (37) شيبا ، ولا يمنـع (101 : أ) سيبا ، ومنتاب يكسو الحلة ، ويحسن الخلة ، ويفرغ الغلة ، ويملأ القلة .

أجارتنـا : انـا غريبان ها هنـا وكل غريب ـ للغريـب ـ نسيب

فلما وقم الهواجس وكبتها ، وتأمل المخيلة واستثبتها ، تبسم لما توسم ، وسمح بعد ما جمح ، فهاج عقيما فتر ، ووصل ما بتر ، وأظهر ما خبأ تحت ثوبه وستر ، وماج منه البحر الزاخر ، وأتى بما لا تستطيعه الاوائل ولا الاواخر . وقال ـ وقد ركض الفنون وأجالها ، وعدد الحكم ورجالها ، وفجر للاحاديث أنهارها ، وذكر البلدان وأخبارها ـ :

ولقـد سئمـت مـآربـى فكـأن أطيبهـا (38) خبيـث

الا الحـديـث فـانـه مثل اسمه ـ ابـدا ـ حديـث

فلما ذهب الخجل والوجل ، وطال المروى والمرتجل ، وتوسـط الواقع ، وتشوفت للنجوم المواقع ، وتوردت الخدود الفواقع ، قلت : أيها الحبر ، واللج الذى لا يناله السبر ، لا حجبك ـ قبل عمر النهاية ـ القبر ، ـ وأعقب كسر أعداد عمرك ـ المقابلة بالقبول والجبر ، كأنا بالليل قد أظهر ـ لوشك الرحيل ـ (101 : ب) الهلع ، والغرب الجشع لنجومه

---

34) عكره : ابلـه .
35) ناب : الناب هى الناقة المسنة .
36) حوار : بفتح الحاء وضمها ، ولد الناقة .
37) يقصد : أنه لا يعيب أحدا فى غيبته ، وقد وردت هذه الجملة فى نسخة (س) .
38) فى نسخة (س) « فكان » بدل « فكأن » وهو ما لا يستقيم وزنا .

قد ابتلع ، ومفرق الاحباب ــ وهو الصبح ــ قد طلع ، فأولنى عارفة من معارفك أقتنيها، وأهززلى أفنان حكمك أجتنيها، فقال : أمل ميسر ، ومجمل يحتاج أن يفسر ، فأوضح الملغز ، وابن لى الطلا (39) من البرغز (40) . وسل عما بدا لك ، فهو أجدى لك ، فأقسم لا تسألنى عن غامض ، وحلــو وحامض ، الا أوسعته علما وبيانا ، وأريتك الحق عيانا .

قلت : صف لى البلاد وصفا لا يظلم مثقالا ، ولا يعمل ــ فى غير الصدق ــ وخدا ولا ارقالا (41) ، واذا قلتم فاعدلوا (42) ؛ ومن أصدق من الله مقالا (43) فقال : سل ، ولا تسل ، ولو راعك الاسل . قلت : انفض لى البلاد الاندلسية من أطرافها ، وميز ــ بميزان الحق ــ بين اعتدالهــا وانحرافها ، ثم اتلها بالبلاد المرينية (44) نسقا ، واجل ــ بنور بيانك ــ غسقــــا :

---

39) الطلا : ولد الظبى ساعة ولادته ، والجمع « اطلاء » .

40) البرغز : ولد البقرة ، ويقصد بالعبارة : أوضح غرضك وفصله .

41) الوخد والارقال : نوعان من السير السريع للابل .

42) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » سورة الانعام ، آية : 152 .

43) اقتباسا من قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا » سورة النساء ، آية : 122 .

44) البلاد المرينية : البلاد المغربية ، نسبة الى بنى مرين الذين حكموا هذه البلاد فى الفترة من 668 ــ 869 هـ (1269 ــ 1265 م) وكانت عاصمتهم فاس .

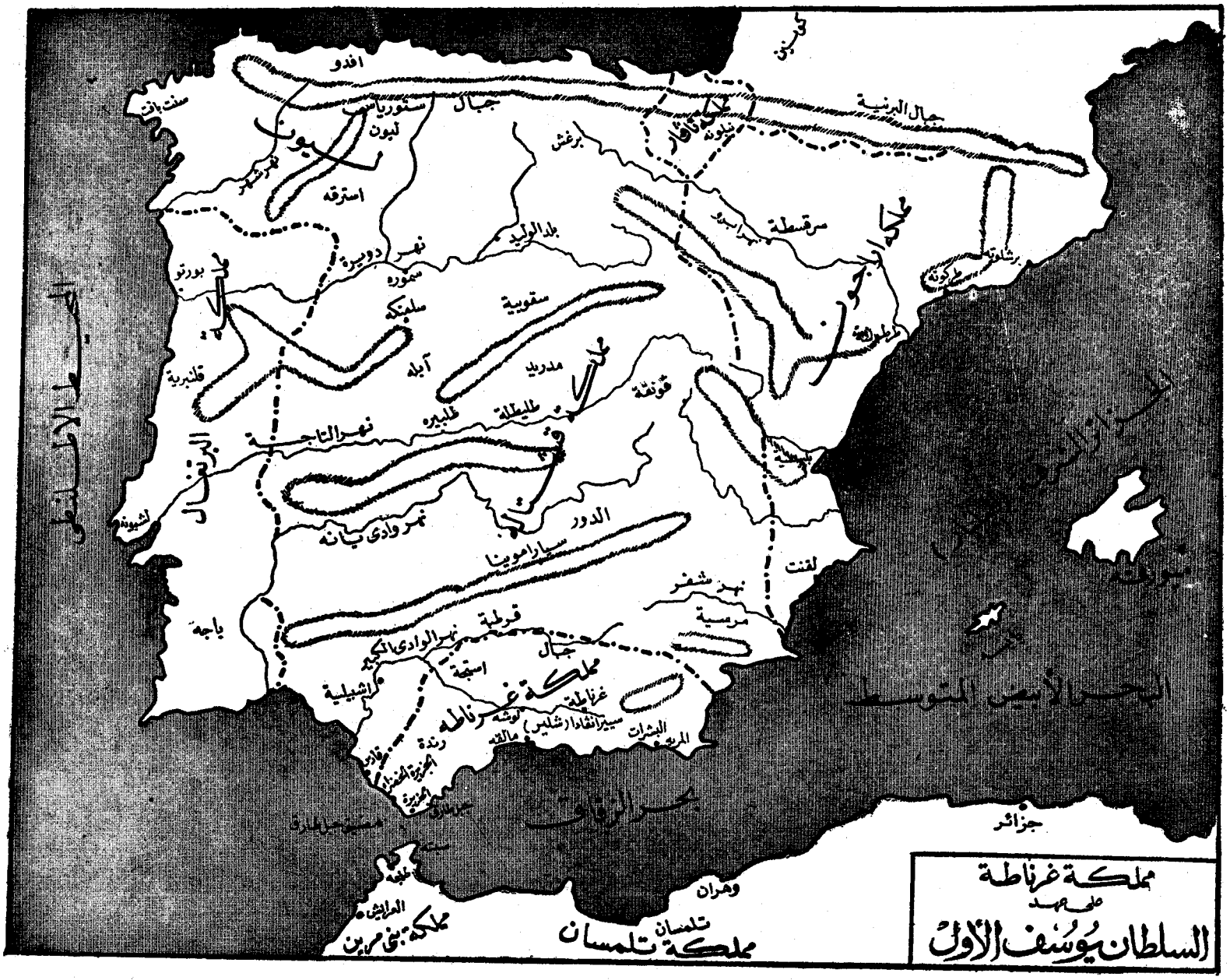

خريطة مملكة غرناطة ، يقابلها الجزء الشمالى من مملكة بنى مرين المغربية، وذلك فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى

جـــبـــــل طـــــــارق

« منظر جبل طارق من البحر »

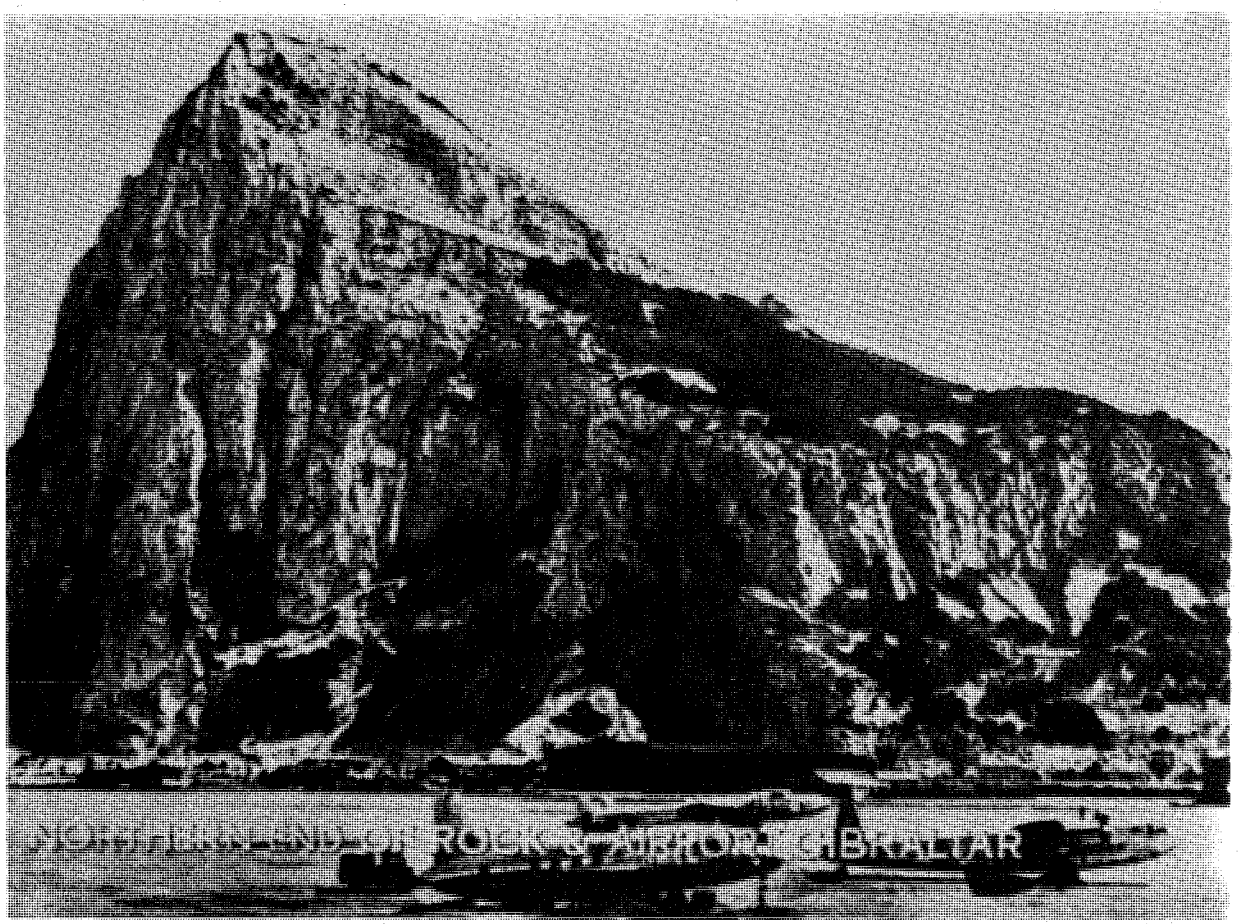

« منظر راس الصخرة »

وهات ما تقول فى « جبل الفتح » (46) :

1 ــ « جبـــل الفتـــح »

قال : فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم، وقصص المهارق (47) ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للارض المفــارق ، مأهــل العقيــق (48) وبــارق (49) ، ومحــط طارقهــا ، (102 : أ) بالفتح طارق . ارم البلاد (150) التى لم يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الالسنة ولا توفيهــا .

حجزه البحر ، حتى لم يبق الا خصر ، فلا يناله ــ من غير تلك الفرصة ــ ضيق ولا حصر ، وأطل بأعلاه قصر ، وأظله فتح ــ من الله ــ ونصر . ساوق (51) سوره البحر فأعياه ، قد تهلل بالكلس محياه، واستقبل الثغر الغريب فحياه . اطرد صنع الله فيه ، من عدو يكفيه ، ولطف يخفيه ، وداء عضال يشفيــه . فهو خلوة العباد ، ومقام العاكف والباد ، ومسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب المسلمة والاكباد . هواؤه صحيح ، وثراه ــ بالخزين ــ شحيح ، وتجر الرباط فيه ربيح ، وحماه ــ للمال

---

46) جبل الفتح : هو جبل طارق « Gibraltar » نسبة الى فاتح اسبانيا (طارق بن زياد) ، وكان يسمى قبل الفتح « Calpe » بمعنى « تجويف » يتبع بريطانيا حاليا ، وتنازعها اسبانيا فى الاحقية ، وهذا خلاف قديم .
راجــع : José Carlos de luna-Historia de Gibra ltar

47) المهارق : جمع مهرق ، وهى الصحيفة .

48) العقيق : العقيق تقوله العرب لكل مسيل ماء شقه السيل فى الارض فانهـــره ووسعه ، وفى بلاد العرب أربعة أعقــة .
راجع : ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ ج 14 ص 138 ، ص 139 .

49) بارق ، ركن من أركان اليمامة ، وهو جبل ، كما يطلق أيضا على ماء بالعراق ، وهو الفاصل بين القادسية والبصرة من أعمال الكوفة ، وقد عناه المتنبى بقوله:
تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجــر السوابــق
راجع : ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ ج 2 ص 319 ــ 320 .

50) ارم : الارم ، ما يهتدى به من حجارة تنصب فى المفازة ، وجمعه آرام وأرؤم ، والمعنى : علم البلاد .

51) ساوق : فاخــر .

والحريم ــ غير مبيح ، ووصفه الحسن لا يشان بتقبيح. الا انه ــ والله يقيه مما يتقيه ــ بعيد الاقطار، ممار بالقطار (52)، كثير الرياح والامطار. مكتنف بالرمل المخلف ، والجوار المتلف . قليل المرافق ، معدوم المشاكل والمرافق . هزل الكراع **(لعدم الازدراع ، حاسر الذراع ، للقراع)** (54)، مرتزق من ظل الشراع . كورة دبر ، (55) ومعتكف أزل وصبر ، وساكنه حى فى قبر (102 : ب) .

هو الباب ان كان التزاور واللقيا وغوث وغيث للصريخ وللسقيا

فان تطرق الايام فيه بحادث وأعزز به قلنا : السلام على الدنيا

2 ــ « اسطبونة » (56)

قلت : فاسطبونة ؟

قال : ذهب رسمها ، وبقى اسمها ، وكانت مظنة النعم الغزيرة ، قبل حادث الجزيرة (57) .

---

52) القطار : السحاب الغزير القطر .

53) المرافق : أراد بالمرافق الاولى المنافع ، وبالثانية الآبار .

54) لعدم الازدراع : لعدم المرعى ، وما بين القوسين زيادة وجدناها فى نسختى (س ، ر) .

55) كورة دبر : منزل النحل والزنانير ، وقد وردت فى نسختى (ر ، د) « حبر » .

56) اسطبونة : بلدة تقع غرب مالقة ، على شاطىء البحر المتوسط ، وتعرف فى الاسبانية باسم « Estepana »

57) يقصد بحادث الجزيرة موقعه طريف ، وهى بالاسبانية« Batalla del Salado » حدثت بين النصارى من جهة وبين المغاربة والاندلسيين من جهة اخرى، وتمخضت عن هزيمة المسلمين ، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء (10/30/ 1340 م = جمادى الاولى 741 هـ) .
راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 261 ، 262 ، والمقرى فى « نفح الطيب » ج ص 317 ، 318 ، وابن الخطيب فى اللمحة البدرية ص 92 ، 93 ، والسلاوى فى « الاستقصاء » ج 2 ص 65 ، 66 ، ودكتور لويس سيكودى لوثينا » فى مجلة الاندلس ــ ملحق 1949 م .

مـــربـــــلة (غرنـــاطـــــة)

صورة من الجـــو للمدينة الساحلية

3 ـ « مـربلـــة » (58)

قلت : فمربلـــة ؟

قال : بلد التأذين على السردين ، ومحل الدعاء والتأمين ، لمطعـم الحوت السمين ، وحدقاتهـا مغرس العنب العديـم القرين ، الى قبـة أرين (59) . الا أن مرساها غير أمين ، وعقارها غير ثمين ، ومعقلها تركبه الارض عن شمال ويمين (60) .

4 ـ « سـهـيـــل » (61)

قلـت : فسهيـل ؟

قال : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى ـ بفضله ـ كل ذى عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير وتين . قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم . وأسهلت بين يديه قراه ، وجاد بالسمك واديه وبالحب ثراه ، وعرف شأنه بأرض النوب (62) ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب . الا أن سواحله فل (63) الغارة البحرية ، ومهبط

---

58) مربلة : مدينة متوسطة ، تقع غرب مالقة ، على مسافة 60 كم منها ، تعرف فى الاسبانية باسم « Marbella »

59) فى نسخة (ر ، س ، ط) « قلت ان مرساها غير أمين » ، وقد أوردها كذلـك المستشرق « سيمونيت » ، ولكن الصواب فى نسختنا .

60) فى نسخة (س ، ر) « عن شمال ويمين » بدل « من شمال ويمين » .

61) سهيل : ميناء على ساحل البحر المتوسط ، يعرف اليوم فى الاسبانيـة باسـم Fuenjerola على مسافة 28 كم شرقى مربلة .

62) ربما يقصد « بلاد النوبة » اقصى الجنوب بجمهوريـة مصـر العربية ، وشمال السودان ، والتعبير كناية عن بعد صيت المدينة .

63) فى نسخة (ر ، س) « بل » بدل « فل » .

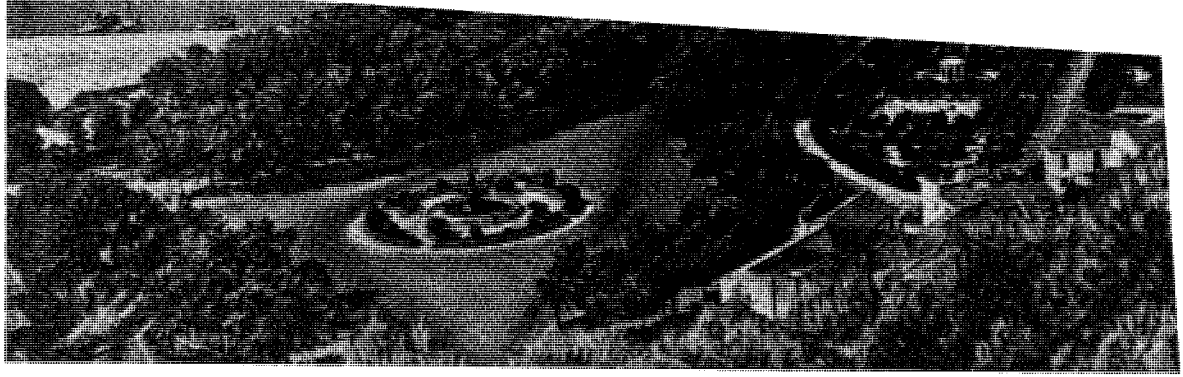

منظر عام للمدينة وميناتها

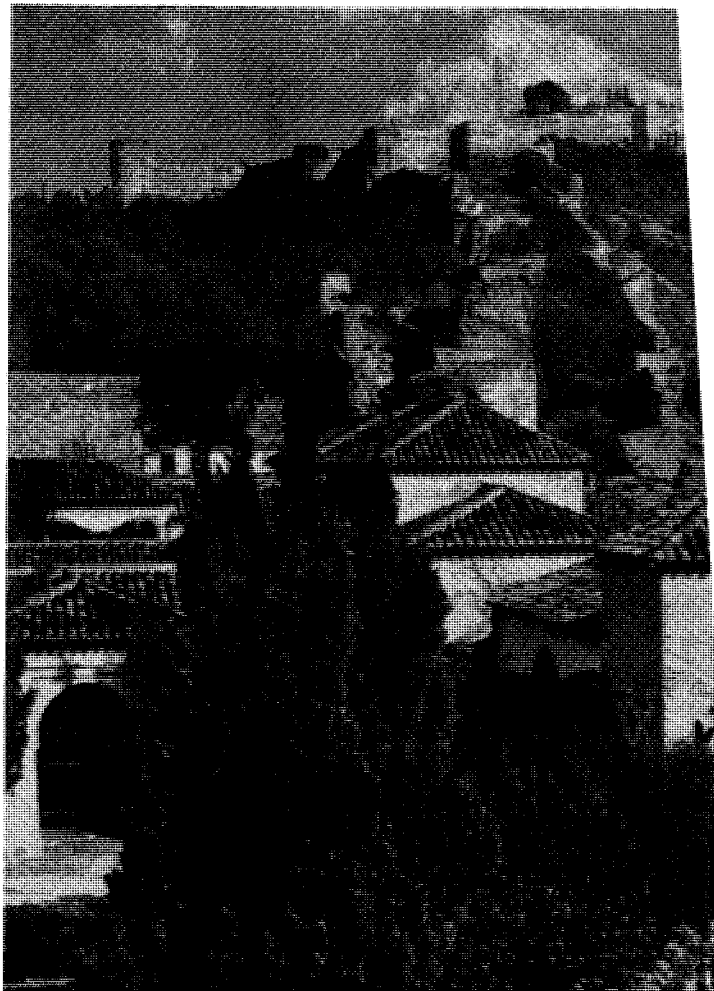

السرية غير السرية ، الخليقة بالحذر الحرية ، مسرح السائمة الاميرية ، وخدامها (103 : أ) ــ كما علمت ــ أولئك هم شر البرية (64) .

5 ــ مالقـــة (65)

قلت : فمدينة مالقـــة ؟

قال : وما القول (66) فى الدرة الوسيطة ، وفردوس هذه البسيطة ؟ أشهد لو كانت سورة لقرنت بها حذقة الاطعام (67) ، أو يوما لكانت عيدا فى العام (68) ، تبعث لهـــا بالسلام مدينـــة السلام (69) ، وتلقى لها يـــد الاستسلام محاسن بلاد الاسلام . أى دار ، وقطب مدار ، وهالة ابدار ، وكنز تحت جدار . قصبتها مضاعفة الاسوار ، مصاحبة للسنين مخالفة للادوار (70) ، قد برزت فى أكمل الاوضاع وأجمل الاطوار . كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة . فحماها منيـــع حريز ،

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » سورة البينة ، آية : 6 .

65) مالقة : Malaga مدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع تأسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق. م ، حيث كانت تعرف باسم« Malaca »بمعنى : المملح ، نسبة الى الاسماك المملحة التى اشتهرت بها ، وتتوفر المدينة ايضا على أجود انواع الفواكه ، ولها شهرة فى صناعـــة الفخار Ceramica ، كانت عاصمة الحموديين الادارسة أيام ملوك الطوائف ، كما كان بنو الاحمر يعتبرونها العاصمة الثانية بعد غرناطـــــة .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 1 ص 186 ، وياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 17 ص 367 .

66) فى نسخة (ر ، س) « وما اقول » بدل « وما القول » وكلاهما بمعنى .

67) حذقة الطعام : الحفل الخاص بانتهاء الصبى من حفظ القرآن .

68) فى نسخة (ط ، س) « فى الايام » بدل « فى الطعام » فالتعبير فى نسختنا أعم .

69) مدينة السلام : بغداد .

70) فى نسخة (س ، ر) « مصاحبة السنين ، محالفة الادوار » ، فلعلها فى نسختنا أولـــى .

مـالـقـة ـ الـقـصـبـة

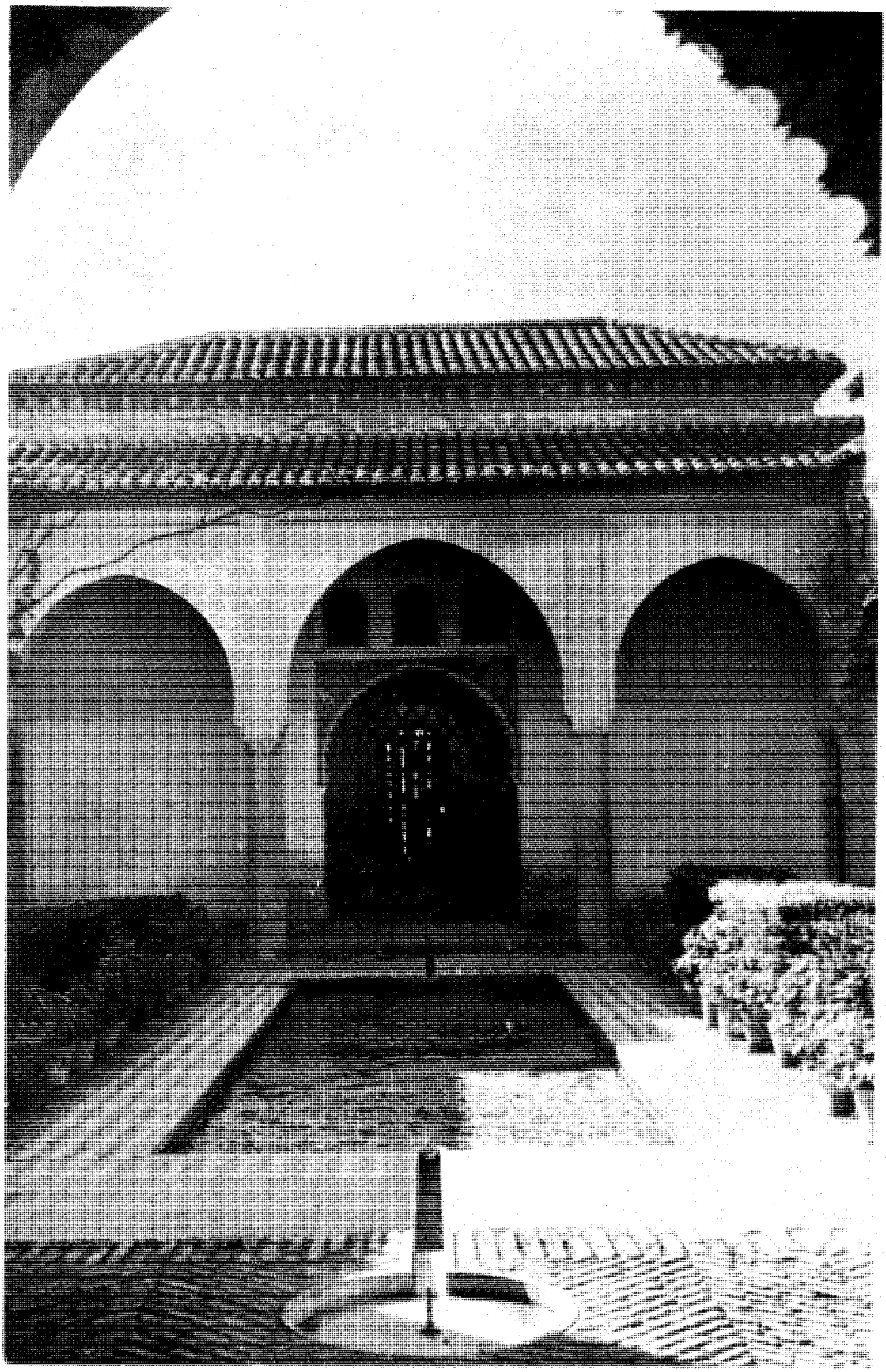

احـد الافـنيـة فى القصبة

اضطبنت دار الاسطول ، وساوقت البحر بالطول ، وأسندت الى جبل الرحمة ظهرها ، واستقبلت ملعبها ونهرها ، ونشقت وردها الارج (103 : ب) وزهرها ، وعرفت قدرها ، فأغلت مهرها . وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض (72) ، والعالم الثانى ما بين الاوج الى الحضيض .

دار العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة ، حيث الاوانى تلقى لها يد الغلب صنائع حلب ، والحلل التى تلح صنعاء فيها بالطلب ، وتدعو الى الجلب ، الى الدست الرهيف ، ذى الورق الهيف . وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير قوت ، وزائر غير ممقوت . الى المواساة ، وتعدد الاساة ، واطعام الجائع والمساهمة فى الفجائع ، وأى خلق أسرى من استخلاص الاسرى ، تبرز منهم المخدرة حسرى ، سامحة بسواريها ولو كانا سوارى كسرى . الى المقبرة التى تسرح بها العين ، وتستهان ــ فى ترويض روضاتها ــ العين ، الى غلالها المحكمة البنيان ، الماثلة كنجوم السماء للعيان ، وافتراض سكناها ــ أوان العصير ــ على الاعيان ، ووفور أولى المعارف والاديان .

(104 : أ) وأحسن (73) الشعر فيما أنت قائله
بيت يقال ــ اذا أنشدته ــ صدقا

وعلى ذلك ، فطينها يشفى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد (74) منها مشروبها ، فسحنها (75) متغيرة ، وكواكب

---

71) تبريز : مدينة فى ايران ، وهى قاعدة اقليم « اذربيجان الشرقية » ، وتشتهر بصناعة الطنافس والحرير .
72) اضطبنت : وافقت .
73) فى نسختى (س ، ط) « مما » بدل « فيما » .
74) فى نسختى (ط ، د) « يستعمل » بدل « يستمد » .
75) فى نسختى (ر ، س) « فسخهما ، فساحاتها » بدل « فسحنها » فلعلها فى نسختنا أولى .

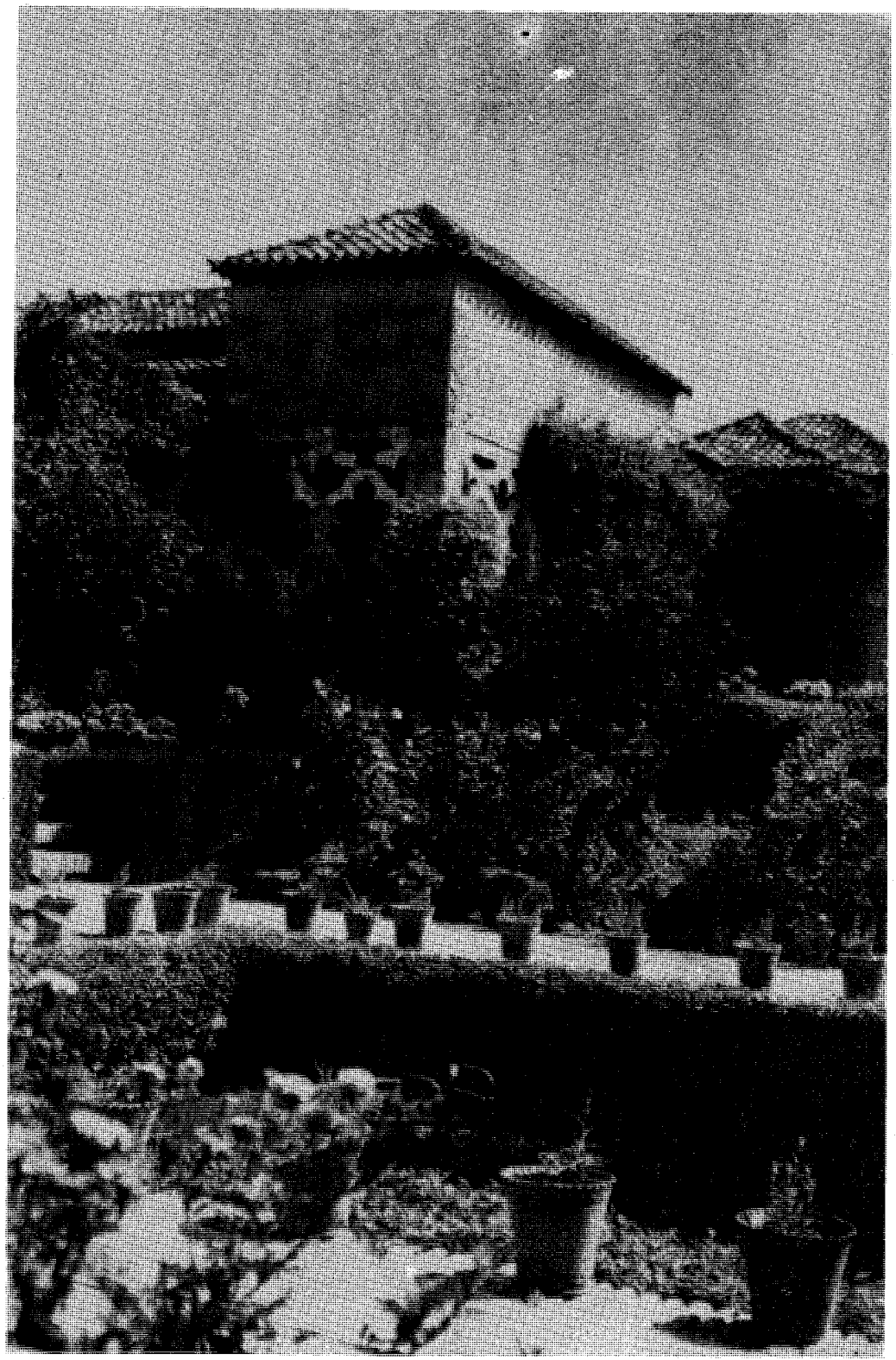

قصبة مالقـــة (منظر جانبي)

أذهانها النيرة متحيرة ، وأقطارها جد شاسعة ، وأزقتها لزجة (76) غير واسعة ، وآبارها تفسدها أزفارها ، وطعامها لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان ، وجوعها ينفى به هجوعها ، تحث (77) على الامواج أقواتها ، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها ، وأرحيتها تطرقها النوائب ، وتصيب أهدافها السهام الصوائب ، وتعد بها الجنائب ، وتستخدم فيها الصبا والجنائب ، وديارها الآهلة بالسكان قد صم بالنزائل صداها ، وأضحت بلاقع بما كسبت يداها ، وعين أعيانها أثر ، ورسم مجادتها قد دثر ، والدهر لا يقول لها لمن عثر (78) ، ولا ينظم شملا اذا انتثر . وكيف لا يتعلق الذام ، ببلد يكثر به الجذام ! محلة بلواه آهلة ، والنفوس ــ بمعرة عدواه ــ جاهلة .

ثم تبسم عند انشراح صدر ، وتذكر (79) قصة (104 : ب) الزبرقان بن بدر (80) .

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وان ذممت تقل (81) قيء الزنابير
مدح وذم ، وعين الشيء واحدة ... ان البيان يرى الظلماء كالنور (82)

76) فى نسخة (س) « حرجة » .
77) فى نسخة (ط) « تحط » بدل « تحث » .
78) مثل يضرب عند العرب ، ومعناه : أن الدهر لا يدعو لك بالانتعاش اذا عثرت .
79) فى نسخة (س) « وذكر » بدل « وتذكر » .
80) تتلخص قصة الزبرقان بن بدر فى : أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل عمرو ابن الاهتم عن الزبرقان بن بدر ، فقال : « مانع لحوزته ، مطاع فى أدنيه » فقال الزبرقان : أما انه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى ، فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال : فوالله ما علمته الا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيم الخال، حديث الغنى» ، فلما رأى عمرو انه قد خالف قوله الاول، ورأى الانكار فى عينى الرسول ، قال : « يا رسول الله ، رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الاولى ، ولقد صدقت فى الاخرى » فقال الرسول عند ذلك : « ان من البيان لسحرا » .
انظر : الجاحظ فى « البيان والتبيين » . ج 1 ص 52 .
81) فى نسخة (ط) « فقل » .
82) فى نسخة (ط ، س) « فى النور » بدل « كالنور » .

6 ـ « بليـــش مالقـــة » (83)

قلت : فبليـــــش ؟

قال : جادها المطر الصيب ، فنعم البلد الطيب ، حلى ونحـــر ، (وبـــر) ولوز وتين ، وسبب من الامن متين ، وبلد أمين ، وعقار ثمين ، وفواكه عن شمال ويمين ، وفلاحة مدعى انجابها لا يمين . الا أن التشاجر بها أنمى من الشجر ، والقلوب أقسى من الحجر ، ونفوس أهلها بينة الحسد والضجر ، وشأنها غيبة ونميمة ، وخبث (84) مائها ـ على مـــا سوغ الله من آلائها ـ تميمة (85) .

7 ـ « قمـــارش » (86)

قلت فقمـــارش ؟

قال : مودع الوفـــر ، ومحـــط السفـــر ، ومزاحم الفرقـــد (87) والغفر (88) ، حيث المـــاء المعين ، والقوت المعين . لا يخامر قلـــب

---

83) هى بالاسبانية « Velez Malaga » موقعهـــا غرب مدينـــة مالقـــة علـــى مسافة 34 كم . وقد تحدث ابن بطوطة عنها فى « الرحلة » بما يؤيد وصف ابن الخطيب هنا (رحلة ابن بطوطة ج 2 ص 187) .

84) فى نسخة (ر ، س) « وخبيث » .

85) التميمة : تجمع على تمائم ، وهى للاطفال مثلا ما يوضع على صدورهـــم أو جباههم من تعاويذ ، يعتقد اهلوهم انها تقيهم شر الجوائح وعين الحسود ، قال الشاعـــر :

واذا المنية انشبت اظفارهـــا ألفيت كل تميمة لا تنفـــع

والقصد فى موضوعنا : أن المؤلف يعلل لخبث ماء بليش ، بأنه تعويذة من حسد الحساد ، لما أنعم الله به عليها من النعم التى عددها .

86) قمارش : هى « Comares احدى الحصون الهامة ايام مملكة غرناطة ، وتقـــع قربهـــا .

87) الفرقد : البقر الوحشى .

88) الغفر : ولد الوعل .

المـــمـــنـــكـــب

مـــرفـــا نـــزول عبـــد الرحمـــن الـــداخـــل

مؤســـس دولـــة بني امـــيـــة بـــالانـــدلس

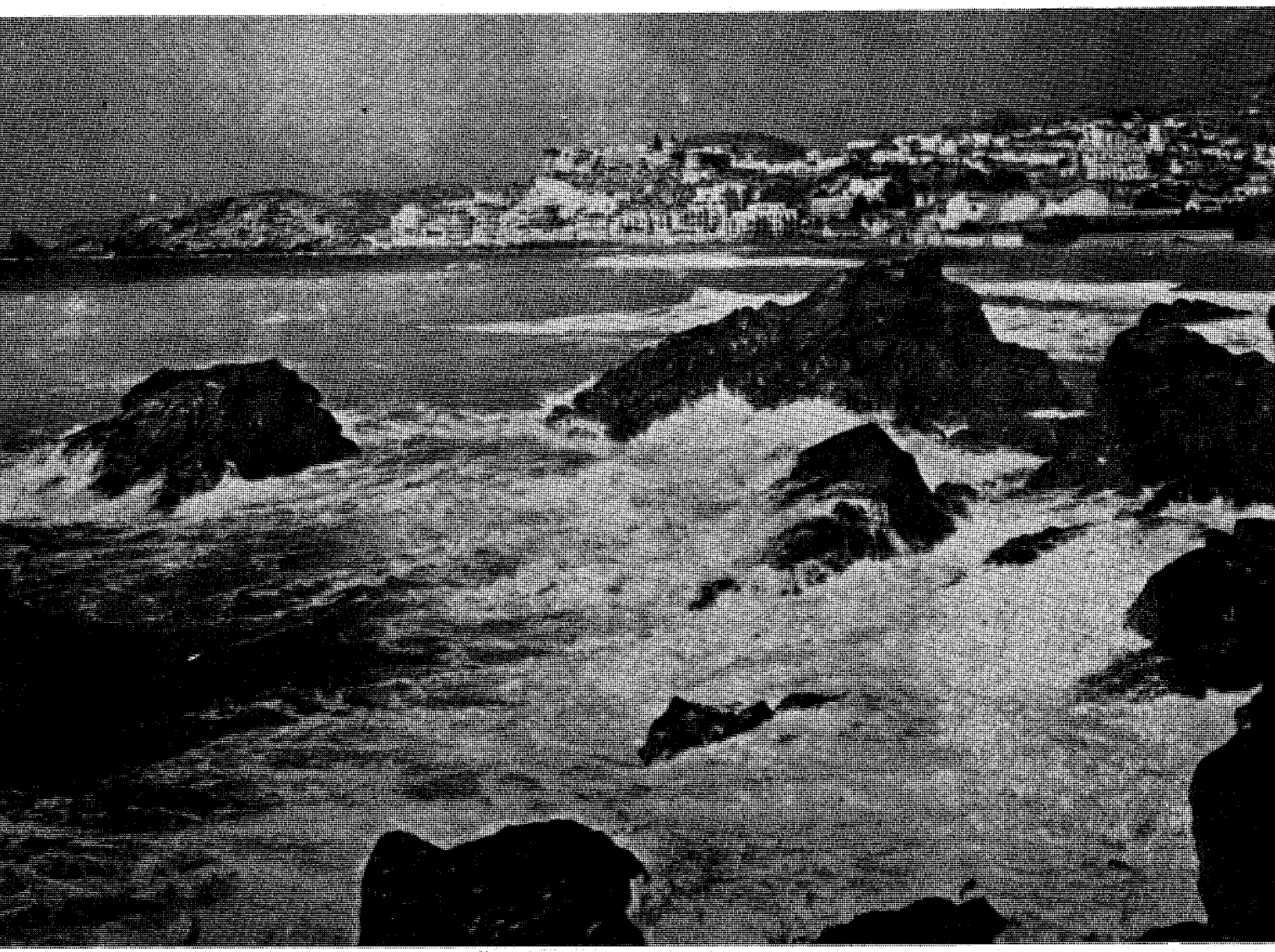

صـــورة مـــن البـــحـــر

الثائر به خطرة وجله ، الا من أجله . طالما فزعت اليه نفوس الملـوك الاخائر بالذخائر ، وشقت عليه أكياس المرائر فى الضرائر . وبه الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين ،واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين، والمكان المكين . الا أنه عدم سهله (89) ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهلـــه .

8 ــ « المنكـــــب » (90)

قلت : (105 : أ) فالمنكـب ؟

قال : مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومختطها . بلدة معقلها منيع ، وبردها صنيع ، ومحاسنها غير ذات تقنيع . والقصـر المفتح الطيقان ، المحكم الاتقان ، والمسجد المشرف المكان ، والاثر المنبىء عن كان وكان ، كأنه مبرد واقف ، أو عمود فى يـد مثاقف . قد أخذ من الدهر الامان ، وتشبه بصرح هامان (91) ، وأرهفت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل(مـا) بين الحوت والحوت (92) . غصـت

---

89) يرمى بهذه الكناية الى سوء خلق اهل البلد .

90) المنكب : مرفأ ساحلى مرتفع ، يقع جنوب شرق الاندلس بمقاطعة غرناطة ، يدعى الآن « Almunecar » وقد نزل الامير الاموى عبد الرحمن بن معاوية بهـذا الميناء عند دخوله الاندلس فى ربيع الاول 138 هـ = سبتمبر 755 م ، وهـذا الامير هو الذى عرف بعدئذ بلقب « الداخل » .
راجع : الادريسى فى « نزهة المشتاق » ــ ص 199 ــ نشر دوزى 1866 م ، وكذا « الروض المعطار للحميرى ص 186 .

91) يرمى الى الصرح الذى أمر فرعون وزيره هامان بتشييده له ، فى قوله تعالى : « وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين » القصص : 38 .

92) يعنى بالحوت الاول : السمك ، وبالآخر : نجم ، كناية عن عظم ارتفاع القصر .

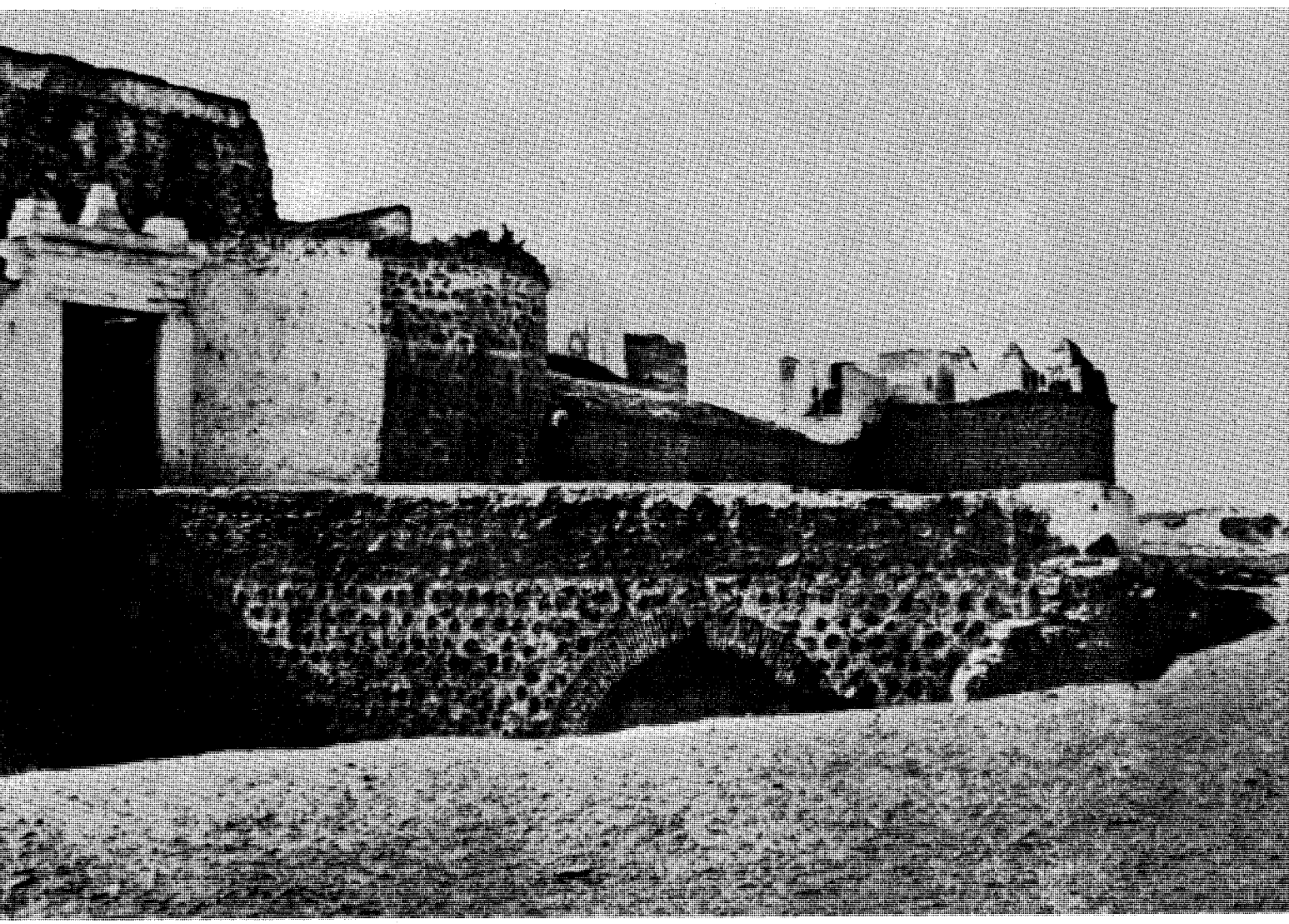

حصن العنكب (اول محط لعبد الرحمن الداخل)

ـ بقصب السكر ـ أرضها ، واستوعب بها (93) طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق .

وقد مت ـ اليها ـ جبل الشوار (94) بنسب الجوار . منشأ الاسطول ، بعدته (95) غير ممطول ، وأمده لا يحتاج الى الطول . الا أن اسمها مظنة طيرة تشتنف (96) ، فالتنكيب ـ عنها ـ يؤتنف (97) . وطرقها (98) يمنع شر سلوكها من تردد ملوكها ، وهواؤها فاسد ، ووباؤها مستأسد ، وجارها حاسد . فاذا التهبت السماء ، وتغيرت بالسمائم (99) المسميات والاسماء ، فأهلها ـ من أجداث بيوتهم ـ يخرجون (100) ، والى جبالها يعرجون . والودك اليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، (105 : ب) والصبر ـ ان لم يبعثه البحر ـ مطلوب (101) ، والحرباء ـ بعرائها ـ مصلوب (102) ، والحر ـ بدم الغريب ـ مطلوب (103) .

---

93) في نسخة (ر) « فيها » بدل « بها » .

94) يقصد به جبل « Sierra del Cazulas »
راجع في هذا كلا من الحميري في « الروض المعطار » ص 112 ، وكذا : « سيمونيت » في تحقيقه ص 47 .

95) في نسخة (ط) « فوعدها » .

96) في نسخة (س) « تستنف » .

97) يؤتنف : يبتدىء .

98) في نسختي (س ، ط) « وطريقها » .

99) السمائم : الريح الحارة .

100) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا ، كانهم الى نصب يوفضون » سورة المعارج ، آية : 43 .

101) لعله يقصد أن القمح هو الآخر يجلب من الخارج ، ثم يصرف بين أهل المدينة، فان لم تأت به السفن فالصبر نافذ .

102) لعل السبب لهذا شدة الحرارة ، كما أسلف ، ويبقى الاعتراض على تذكير « مصلوب » والحرباء مؤنثة ، وعلى هذا المرجع انه يقصد بالحرباء قاطع الطريق العاتي ، بدليل ما بعده ، ويميل « سيمونيت » الى ذلك .
راجع : سيمونيت في تحقيقه ص : 47 .

103) ربما يرمي بذلك الى أن أهلها شرار يعترضون طريق الغريب ، بغية السلب، ولو أدى بهم ذلك الى قتل الغريب ، ومن ثم يكون القصاص منهم .

9 ـ « شلـوبانيـة » (104)

قلت : فشلوبانيـة ؟

قال : أختها الصغرى ، ولدتها التى يشغل بها المسافر ويغرى ، حصانة معقل ، ومرقب متوقل ، وغاية طائر ، وممتنع ثائر ، ومتنزه زائر ، تركب ـ بدنها ـ الجداول المرفوعة ، وتخترق ـ جهاتها ـ المذانـب المفردة والمشفوعة ، ففى المصيف تلعب بالعقل الحصيف ، وفى الخريف تسفر عن الخصب والريف . وحوت هذه السواحل أغزر من رملـه ، تغرى (105) القوافل الى البلاد بحمله (106) ، الى الخضر الباكرة ، والنعم الحامدة للرب الشاكرة . وكفى بمترايل (107) من بسيطها محلة مشهورة ، وعقيلة ممهورة ، ووداعة فى السهل غير مبهورة (108) . جامعها حافل ، وفى حلة الحسن رافل . الا أن أرضها مستخلص السلطان بين الاوطان ، ورعيتها عديمة الاعيان ، مروعة على الاحيان . وتختص

---

104) شلوبانية : بلدة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، تبعد بمسافة 16 كلـم شرق المنكب ، وتعرف فى الاسبانية باسم « Salobrena » تحيط بها الجبال من الشمال والغرب ، وبها حصن اندلسى من اهم الآثار الاندلسية ، وهـو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق ، وقد سقطـت شلوبانية فى يد الاسبان فى نفس العام الذى سقطت فيه المنكب ، أى عـام 1489 م ، والى شلوبانية ينتسب امام النحو الاندلسى « ابو على الشلوبين» المتوفى باشبيلية عام 645 هـ (1247 م) .

105) فى نسخة (س) « تغدو » .

106) فى نسخة (س) « تحمله » .

107) مدينة تسمى الآن « Motril » ، يبلغ تعداد سكانها حاليا 50.000 نسمـة تقريبا ، تبعد عن مالقة بنحو 107 كم ، كما تبعد عن مدينة غرناطة شرقـا بنحو 74 كم تجاه ساحل البحر الابيض المتوسط ، تشتهر بزراعـة قصـب السكر ، ولها اهمية اقتصادية بين مدن غرناطة ، حيث انها مركز هـام للمواصـلات .

108) غير مبهورة : غير مفضولة .

شلوبانية بمزية البنيان ، ولكنها غاب الحميات ، غير أمينة على الاقتيات ، ولا وسيمة الفتيان ولا الفتيـــات (109) .

10 ـ « بـــــرجـــــة » (110)

قلت : فبرجـــــة ؟

قال : تصحيف وتحريف ، وتغيير فى تعريف (111) . ما هى الا بهجة ناظر ، وشرك خاطر ، ونسيجة (106 : أ) عارض ماطر ، ودارين (112) نفس عاطر . عقارها ثمين ، وحرمها أمين ، وحسنها باد وكمين ، عقود أعنابها قد قرطت آذان الميس (113) والحـــور (114) ، وعقائل أدواحها مبتسمة عن ثغور النور . وسيطها متواضع عن النجد ، مرتفع عن الغور ، وعينها سلسالة ، وسبائك (115) المذانب منها مسالة ، تحمل الى كل جهة رسالة ، ودورها فى العراء مبثوثة **(وركائب النواسم بينها محثوثة)** ، لا تشكو بضيق الجوار ، واستكشاف العوار ، وتزاحم الزوار .

مياه وظلال ، وسحر حلال ، وخلق دمث كثراها ، ومحاسن متعددة كقراها ، ولطافة كنواسمها عند مسراها ، وأعيان ووجوه ، نجل العيون ،

---

109) فى نسختى (ط ، س) « والفتيات » بدون « لا » .

110) برجه : هى « Berja » تقع شرق الاندلس ، وتتبع اقليم المرية .

111) يصح أن يكون اسم المدينة مصحف عن « بهجة » ومحرف عن « برج » ، وتقرأ معرفة « البرج » ، وهذا مقصد ابن الخطيب من تعبيره عنها .

112) دارين : مكان بالبحرين يجلب اليه المسك من الهند ، وينسب اليها . وقد ورد هذا المكان كثيرا فى الاشعار العربية ، قال بعضهم :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ويرجعون من دارين بجر الحقائب

113) الميس : نوع من الشجر . يوصف بضخامة الادواح والغصون .

114) الحور : نوع من الكروم ينهض على ساق .

115) فى نسخة (ط) « وسنابك » .

بيض الوجوه ، غلتهم الحرير ، ومجادتهم غنية عن التقرير . الا أن متبوأها بسيط مطروق ، وقاعدتها فروق (116) ، ووتدها مفروق (117) ، ومعقلها خرب ، كأنه أحدب جرب ، ان لم ينقل اليه الماء ، برح به الظماء ، ولله در صاحبنا اذ يقول :

يـا بسيطـا بمعانـى بـرجـه أصبـح الحسن بـه مشتهـرا
لا تحـرك بفخـار مقـولا فلقـد ألقمـت منهـا حجـرا

والبر بها نزر الوجود ، واللحم تلوه وهما طيبتا الوجود ، والحرف (106 : ب) بها ذاوية العود ، والمسلك اليها بعيد الصعود .

11 ـ « دلايـة » (118)

قلت : فدلايـة ؟

قال خير رعاية وولاية ، حرير ترفع عن الثمن ، وملح يستفد على الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبت بها جبن وخروف . الا أنها لسرايا العدو البحرى مجر العوالى ، ومحل الفتكات على التوالى ، فطريقها صوى (119) ومشاهد ، والعارف ـ فى مثلها ـ زاهد .

---

116) قاعدتها فروق : اى أن أرضها عرضة للغارات ، التى تجعلها جزعة يتملكها الخوف .

117) وتدها مفروق : كناية عن أن مبانيها يفرقها نهر أو واد مثلا ، والتعبير اصطلاح عروضى ، والتورية واضحة .

118) دلاية : هى « Dalias » احدى القرى التابعة لولاية المرية ، تبعد بنحو 9 كم جنوب شرق برجة .

119) صوى : ما يوضع فى الطرق من أحجار كعلامات ، وفى نسخ (س ، ط ، ر) « هوى » . وقد أوردها « سيمونيت » هكذا ، ولعل الصواب فى نسختنا .

12 ـ « المـريـــة » (120)

قلت : فمدينة المريــة ؟

قال : المرية هنية مرية ، بحرية برية ، أصيلة سرية ، معقل الشموخ والاباية ، ومعدن المال وعنصر الجباية ، وحبوة الاسطول (121) ، غير المعلل بالنصر ولا الممطول ، ومحط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا ، ولم تزل ـ مع الظرف ـ دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك .

---

(120) المرية « Almaria » مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس ، ومن أجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وهى عاصمة الولاية المسماة ، بهذا الاسم ، يبلـــغ سكانها اليوم 85.000 نسمة تقريبا ، واهم صادراتها الحديد والرصـــاص والفاكهة ، وكانت فى العهد الاسلامى من أهم ثغور الاندلس الجنوبية ، بناها الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر عام 344 هـ = 955 م ، وسقطت فى يد الاسبان فى فبراير 1490 م (895) .

راجع : الروض المعطار للحميرى ص 183 ، 184 ، وكذلك ما ذكـــره المستشرق « زيبولد » بدائرة المعارف الاسلامية ، عن وضعية هذه المدينة فى العهد الاسلامى ص 319 (Zeybold, Enc. ISI, 1, P. 319)

(121) يقصد القاعدة التى هى مرسى الاسطول .

(122) فى نسختى (س ، ر) « وانف » وهكذا ورد عند « سيمونيت » ، فلعل الصواب فى نسختنا ، اذ يرمى المؤلف بتعبيره هذا الى أن معظم اسم المدينة يعنـــى « المرارة » التى ذاقها العدو فانقلب عنها .

الـمـريـــة

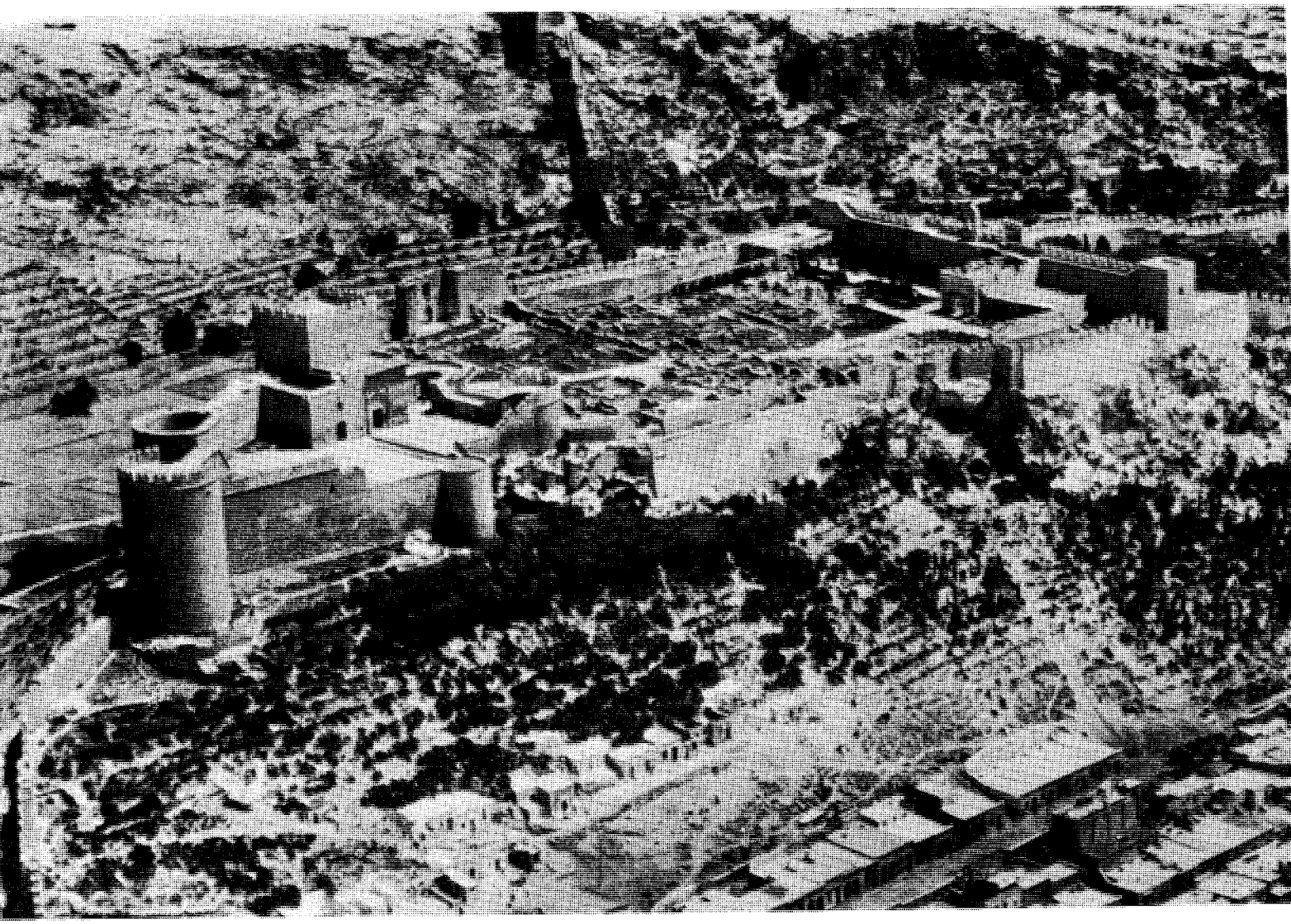

صورة للقصبـــة العربيـــة من الجـــو

أرغم أهلها أنف الصليب ، لما عجم منها بالعود الصليب ، وألف (122) لامها وألفها حكم التغليب ، فانقلب منها آيسا (123) عند التغليب :

يسـأل عـن أهـل المريـة سائـل
وكيـف ثبات القوم والروع باسـر

(107 : أ) قطا دارج فى الرمل فى يوم لذة
ولهو ، ويوم الروع فتخ كواسـر (114)

بحرها مرفأ السفن الكبار ، وكرسيها هو العزيز عند الاعتبـار ، وقصبتها سلوة الحزين ، ومودع الخزين ، وفلك المنتزين . وهى محـل الغلل (125) المجدية ، والاندية (126) المشفوعة الاردية ، ولواديهـا المزية على الاودية . حجة الناظر المفتون ، المكسو الغصون (127) والمتون ، بالاعنـاب والزيتـون .

---

123) ينبغى أن نشير هنا الى هذه المؤامرة السرية الخطيرة التى تمت بين قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة فى آن واحد عام 1309م (709هـ) . وتتلخص هذه المؤامرة فى أن تهاجم الجيوش القشتالية مدينة الجزيرة الخضـراء Algociras بالجنوب ، بينما تهاجم الاساطيل الارجونية ثغور المرية من الشرق ، ويتابع الطرفان هجومهما حتى يتقابلا فى غرناطة نفسها ، وقـد تعرضت مدن اندلسية كثيرة لشر هذا الاتفاق ، وكانت المرية اكثـر المدن ابتلاء بهذا الهجوم ، وقد فشل المشروع الهجومى بصمود هذه المدن .
انظر : ابن القاضى فى « درة الحجال فى غرة اسماء الرجال » ج 1 ص : 71 وما بعدها ، نشر علوش . الرباط 1934 م ، وقد ترجم النص الى عدة لغات، منها ترجمة اسبانية لسانشث البرانث فى :
Sachez, Alborernez, La España Musulmana, P. 386-392.

124) فتخ : الاسد ذوات الكف العريض .

125) فى نسختى (س ، ط) « والحلل » .

126) فى نسخة (ط) « والارديـة » .

127) فى نسخة (ط) « الخصور » .

بلد الخام (128) ، والرخام ، والذمم الضخام ، وحمتها (129) بديعة الوصف ، محكمة الوصف ، مقصودة للعلاج والقصف . حرها شديد، ودكرها طويل مديد ، وأثرها على البلى (130) جديد . الا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوها ــ فى المحول ــ صقيلة ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لا تصدق منها مخيلة ، وبلالة النطية منزورة العطية ، وسعرها من الاسعار غير الوطية . ومعشوق البر بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعب الفصال (131) ، وهى متوقعة الا أن يقى الله طلوع النضال ، وعادة المصـــال (132) .

13 ــ « طبـرنـــش » (133)

قلت : فطبرنش ، من شرقيهـا ؟

قال : حاضرة البلاد الشرقية (134) ، وثنية البارقة الافقية . مـا شئت من تنجيد بيت ، وعصير زيت (135) ، (107 : ب) واحياء أنس

---

128) فى نسختى (ط ، ر) « الكتان » ففى نسختنا اعم .

129) حمتها : لا يقصد بلدة الحامة « Alhama »التى سيفرد ابن الخطيب لها وصفا خاصا بها بعد قليل . وانما يقصد العين الحارة الخاصة بالمرية ، وذلك خلافا لما ذكر د. العبادى فى « المشاهدات » .

130) فى نسخة (ر ، س) « البلاد » ، وقد اوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعلها فى نسختنا اصوب .

131) فى نسختى (ر ، ط) « العضال » وقد اوردها « سيمونيت » كذلك ، ولعـل الصواب فى نسختنا ، فهو يعنى أن حمل السفن من قمح وخلافـه صعـب الفصال ، وهو كناية عن قلة البر وغلاؤه .

132) المصال : الكفاح .

133) طبرنش : هى « Tabernas » وتعنى باللاتينية : حوانيت واكواخ . انظر : سيمونيت فى تحقيقه . Simonet. O.P. Cit. P. 103

134) فى نسخة اخرى « البلاد المشرقية » .

135) فى نسخة (س) « وعصر الزيت » .

ميت ، وحمام طيب ، وشعب تنثر فيه دنانير أبى الطيب (136) . الا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، متحزبة الاحزاب (137) شرهة الاعزاب . ولو شكر ــ الغيث ــ شعيرها ، أخصبت ــ البلاد ــ عيرها .

14 ــ « بيـــــرة » (138)

قلت : فبيـــــرة ؟

قال : بلدة صافية الجو ، رحيبة الدو (139) ، يسرح بها البعير ، ويجم بها الشعير ، ويقصدها ــ من مرسية وأحوازها ــ العير ، فساكنها بين تجر وابتغاء أجر ، ووواديها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخـــوم والحدود ، ان بلغ الى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود . الا أنها قليلة المطر ، مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ، مهطعة لداعى البوار ، حليفة حسن مغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخـــذة بأكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، برها أنذر من برها فى المعتمر والبور ، وزهد أهلها فى الصلاة

---

136) يرمى بذلك الى وصف المتنبى (303 ــ 354 هـ/915 ــ 965 م)لشعب بوان، فى تساقط اشعة الشمس من خلال الاوراق على الارض ، وكأنها الدنانير ، وشعب بوان هو مكان بفارس قرب شيراز ، يوصف بكثرة المياه والاشجار . قال المتنبى فى وصفه :

فدونا تنفض الاغصـــان فيـــه	على أعرافها مثل الجمـــــان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى	وجئن من الضياء بما كفانـــى
والقى الشرق منهـــا فى ثيابـــى	دنانيـــــر تفـــر من البنـــان

راجع : العرف الطيب ــ لليازجى ج 7 ص 603 ــ 612 .

137) فى نسختى (ر ، س) « شريفة » فلعل الصواب فى نسختنا .

138) بيرة : هى بالاسبانية « Vera » تقع شمال شرق مملكة غرناطة ، وهى بلدة مرتفعة ، على ساحل البحر الابيض المتوسط ، مما اكسبها اهميتها الحربية .

139) الدو : الفضاء خارج المدينة .

شائـــع فى الجمهور ، وسوء ملكـــة الاسرى من الذائع (**بهـــا**) (140) والمشهـــــــور .

(مـــا قام خيرك يا زمان بشـــره أولىلنا ما قل منكوما كفى) (141)

15 ــ « مجـــاقـــــر » (142)

قلت : فمجـــــاقـــر ؟

قال : حصن جديـــد ، وخير مديد ، وبحر ما على افادته مزيـــد ، (**وخصب ثابت ويزيـــد**) (143) . ساكنه قد قضى ــ الحج ــ أكثره ، وظهر (108 : أ) عين الخير فيه وأثره ، الا أنه لا تلفى ــ بـــه للماء ــ بلالة ، ولا تستشف للجود علالة .

16 ــ « قنتـــوريـــة » (144)

قلت : فقنتوريـــــــة ؟

قال يسار يمينها ، وغبار كمينها ، ومعمول يمينها ، يجود بها الجبن والعسل ، ومن دونها الاسل (145) ، وأما عن الخبز فلا تسل . وان كانت أحسن شكلا ، فأقل شربا وأكلا ، وأجفا أهلا ، وأشد جهلا ، وأعدم علا

---

140) زيادة فى « س » .

141) هذا البيت ورد فى النسخ الاخرى ، واثبته « سيمونيت » Simonet OP. Cit. P. 112

142) مجاقر : هى بالاسبانية « Mojacar » احدى قرى الاندلس الصغيرة ، مـــا زالت حتى اليوم ، وما زال نساؤها حتى الآن يرتدين الحجاب .

143) زيادة فى « س ، ط » .

144) قنتورية : هى « Cantoria » تقع جنوب « برشانة » على نهر المنصورة .

145) كناية عن بخل اهلها ، بدليل ما ذكره بعدئذ .

ونهلا ، وأهلها شرار ، أضلعهم بالظماء (146) حرار . لا تلفى بهـا نغبة (147) ماء ، ولا تعدم (148) مشقة ظماء ، ولا تنوج أفقها الا فى الندرة قزعة سمـاء .

17 ـ « بـرشانـة » (149)

قلت : فبرشانـة ؟

قال : حصن مانع ، وجناب يانع ، أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى وجوههم نضرة وفى أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة (150) علل الجلافـة ، (**ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة**) (151) ، فأصبح ربعهم ظرفا ، قد ملىء ظرفا ، فللمجون به بسوق ، وللفسوق ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق . وهى تبين بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة ، وفى ألسنتهم ذلاقة ، ولهن بالسفارة (152) فى الفقـراء علاقة . (153) الا أن جفنها ليس بذى سور يقيه مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بملىء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه .

---

146) فى نسختى (س ، ر) « بالظما » وهكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

147) النغبة : بالتشديد مع الفتح أو الضم ، بمعنى الجرعة من الماء .

148) فى نسخة (س) « ولا يعدم » .

149) هى« Purchena وتقع على نهر المنصورة ، تتبع ولاية « المرية » ، ويوجـد مكان آخر بهذا الاسم بولاية « جيان » .
انظر « الروض المعطار » للحميرى ص 52 حاشية 1 .

150)السلافة : أفضل أنواع الخمر ، اذ هى السائل قبل العصير

151) هذه العبارة زائدة فى النسخ الاخرى ، والعلل هو الشرب للخمر المرة تلـو المرة ، فأهل المدينة يؤثرون ذلك على لذة الملك .

152) فى نسختى (س ، ر) « عن » ، وهو أصوب وأنسب .

153) كناية عن اشتغال بعض نسائها بالقوادة .

18 ـ « أوريـــة » (153)

قلت : فأوريـــة ؟ (108 : ب) .

قال : بلد الجبن والعسل (154) ، والهواء الذى يذهب بالكسل ، وأما عن الماء البرود فلا تسل . ادامه الصيد الذى لا يتعذر ، وقوته الشعيـــر الذى يبـــذر . الا أنه بادى الوحشـــة والانقطـــاع ، والاجابـــة لداعـــى المخالفة (155) والاهطاع (156) . وحش الجناب (157) ، عرى من ثمرات النخيل والاعناب ، حقيق لمعرة العدو والاجتناب .

19 ـ « بليـــش الشقـــراء » (158)

قلت :فبليـــــش ؟

قال : ثغر قصى ، وقياد (159) ـ على الامن ـ عصى ، ويتيم ليس عليه ـ غير العدو ـ وصى . ماؤه معين ، وحوره عين ، وخلوته ـ علـــى النسك وسواه ـ تعين . وبه الحمام ، والنطف الجمام (160) ، ولاهله بالصيادة اهتمام ، وعسله ـ اذا اصطفت العسول ـ امـــام . الا أنها

---

153) هى المعروفة اليوم باسم « Oria » بولاية المرية .
154) فى النسخ الاخرى « بلدة » .
155) فى نسخة أخرى « المخالفة » .
156) الاهطاع : الاسراع فى خوف .
157) فى نسختى (س ، ر) « وحسن » هكذا اوردها « سيمونيت » ، وهو مـــا يتناسب مع السياق العام للوصف .
158) هى « Velez Rubio » تقـــع قـــرب مدينة « لورقـــة » ، علاوة علـــى « بليش البيضاء » y en sun proximidales Velez Blancc
كما توجد بليش أخرى تدعى « Velez Malaga » وهى قرب « مالقـــة » .
159) فى النسخ الاخرى بحذف « وقياد » .
160)النطف الجمام : الماء الكثير .

بســـطـــة غـــرنـــاطة

منظـــر عـــام للمـــديـــنـــة

بلدة منقطعة بائنة ، وبأحواز العدو كائنة ، ولحدود لورقة (161) ــ فتحها الله ــ مشاهدة معاينة . وبرها الزهيد القليل يتحف به العليل ، وسبيل الامن اليها غير سبيل ، ومرعاها ــ لسوء الجوار ــ وبيل .

20 ــ « بسطـــــة » (162)

قلت : فمدينـــة بسطـــة ؟

قال : وما بسطة ! بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمهـــا نصيب ، دوحها متهدل ، (163) وطيب هوائها غير متبدل ، وناهيك من بلد اختص أهله فى معالجة الزعفران ، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران . عمت ــ أرضها ــ السقيا فلا تخلف ، وشملتها البركة يختص الله (164) 109 : أ) من يشاء ويزلف ، يتخلل ــ مدينتها ــ الجدول المتدافع ، والناقـــع للغلل (165) النافع . ثياب أهلها بالعبير تتأرج ، وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها ــ فى شط انهارها المتعددة ــ تتفرج . ولها الفحص الذى يسافر فيه الطرف سعيا ، ولا تعدِم السائمة به ريا ولا رعيا ، ولله در القائل :

ألجأنـــى الدهـــر الـــى عالـــــم يؤخذ منـــه العلم والدين (166)
فى بلـــدة عـــوذت نفســـى بهـــا اذ فى اسمهـــا طـــه وياســـــين

---

161) لورقة : مدينة تبعد عن مرسية بنحو60كم على مرتفع جبلى، فهى قلعة مرسية فى الحروب الاسلامية النصرانية ، وقد سقطت لورقة هذه فى يد الاسبان عام 1248 م (645 هـ) .
راجع : الروض المعطار ص 171 .

162) بسطة : تعرف الآن فى الاسبانية باسم « Baza » تقع شمال شرق غرناطـــة بنحو 25 كم .

163) فى نسختى (س ، ر) « متدل » .

164) فى نسختى (ط ، ر) « تختص » .

165) فى نسخة (ط) « للعلل » .

166) فى نسخة (ط) يتأخر البيت الاول عن الثانى ، وهو ما لا يتناسب والسيـــاق العام ، وهكذا أوردها سيمونيت دون اشارة الى نسختنا .

الا أن ترتبها تفضح البناء ، وان صحبة الاعتناء ، فأسوارها تسجد عند الاقامة ، وخندقها ــ لاكسارها ــ تلقامة ، فهى ــ لذلك ــ غيــر دار (167) مقامة ، ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ، وحاميتها تنظر الى الهياج ، من خلف سياج ، فالعدو فيها شديد الفتكات ، معمل الحركات ، وساكنها دائم الشكات ، وحدها فليل ، وأعيانها قليل (168) ، وعزيزها ــ لتوقع المكروه ــ ذليــل .

21 ــ « أشكـــر » (169)

قلت : فأشكـــــر ؟

قال : نعم البسيط المديد ، والرزق الجديد ، والتقى (170) العديد ، والصيد والقديد (171) ، تركب الجداول فحصها ، ويأبى الكمال نقصها ، ويلازم ظل الخصب شخصها . مسرح البهائم ، ومعدن الرعى الدائم . الا أن معقلها لا يمنع ، ومكانها يحوم عليه (109 : ب) الحادث الاشنع ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع .

---

167) فى نسخة (ط) « خير » ، وهو ما لا يتناسب والسياق العام لوصف طبيعــة البلد ، وقد أوردها سيمونيت كذلك مخالفة لنسختنا .

168) هذه الجملة زائدة فى نسختنا ، دون النسخ الاخرى .

169) اشكر : هى « Huescat تتبع ولاية غرناطة ، موقعها شمال بسطة ، ويشيــر « سيمونيت » عند ذكر هذه المدينة الى المنازعات التى كانت بين المسلمــين والنصارى أيام ابن الخطيب .
راجع : Simonet. OP. Cit. p. 63

170) فى نسخة (ط) « والسعى » .

171) فى نسختى (ر، س) « القديد » بدون الواو .

22 ـ « أنـــــدرش » (172)

قلـت : فـأنـــــدرش ؟

قال : عنصر جباية ، ووطن بهم (173) أولو اباية ، حريرها ذهب ، وتربها تبر منتهب (174) ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لا يلفى معه كسل . الا أنها ضيقة الاحواز والجهات ، كثيرة المعابر والفوهات . أعرابها أولـــو استطالة ، وابناء مترفيها كثيرو البطالة ، فلا يعدم ذو الزرع عدوانا ، ولا يفقد عير الشر نزوانا ، وطريقها غير سوى ، وساكنها ضعيف يشكو من قـــــــوى .

23 ـ « شبـالـــش » (175)

قلت : فشبالـــــش ؟

قال : معدن حرير خلصت سبائكه ، وأثرى بزازه وحائكه ، وتهدلت حجاله وتمهدت آرائكه ، وجباية سهل اقتضاؤها ، وجمت بيضاؤها . الا

---

172) اندرش : هى « Andorax » تتبع المرية ، مدينة صغيرة ، توجد الآن قـــرب ولايتها ، واسمها يطلق على نهر هناك ينبع من جبل الثلج Sierra Nevada ويصب فى البحر الابيض المتوسط .

173) فى نسخة (ر) « به » بدل « بهم » ، والبهم بضم ففتح ج بهمة ، وهو الشجاع، يقول البوصيرى :

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البهم والبهـــم

174) فى نسختى (س ، ر) « ملتهب » هكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

175) فى نسخة (ط ، ر) « الفرج » ، هكذا أوردها سيمونيت ، وهو ما لايتناسب والسياق ، فلعل الصواب فى نسختنا .

175) تسمى بالاسبانية« Jubles »موقعها بأطراف جبل الثلج« Sierra Nevada » وكانت عبارة عن حصن فى العصور الاسلامية ، وقد تحدث « سيمونيت » عن هذا الحصن وأهميته فى الحروب الاهلية ، التى كانت تنشب فى غرناطة على مر عصورها الاسلامية المختلفة .
راجع فى هذا : « سيمونيت » ص 102 .

أنه وطن عدم ادامه ، وبيت ظهر اهتدامه ، وفقدت به حيل التعيـــش وأسبابه ، ومحل لا يقيم به الا أربابه .

24 ــ « وادى آش » (176)

قلت : فمدينـــة وادى آش ؟

قال : مدينة الوطن ، ومناخ من عبر أو قطن ، للناس ما بدا (177) ولله ما بطن . وضع سديد ، وبأس شديد ، ومعدن حديد ، ومحـــل عـــدة وعديد ، وبلد لا يعتل فيه الا النسيم ، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم . كثيرة الجداول والمذانب ، مخضرة الجوانب . الى (110 : أ) الفواكه الكثيرة ، والكروم الاثيرة ، والسقى الذى يسد الخلة ، ويضاعف الغلة . وسندها معدن الحديد والحرير ، ومعقلها أهل للتاج والسرير . وهـــى دار أحساب ، وارث واكتساب ، وأدب وحساب . وماؤها مجاج الجليد ، وهواؤها يذكى طبع البليد . الا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش ، وناقهها يتعذر عليه الانتعاش ، وشيخها يسطو على عصبة الارتعاش (178) . فهى ذات برد ، وعكس وطرد ، ما شئت من لحى راعد ، ومقرور علـــى الجمر قاعد ، ونفس صاعد ، وفتنة يعد بها واعد ، وشرور تسل الخناجر ، وفاجر يسطو بفاجر ، وكلف بهاجر (179) ، واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر ، وزمهرير تجمد له المياه فى ناجر شهر (180) . وعلى ذلك فدرتها

---

176) وادى آش : هى « Guadix » تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر « فردس » وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كم .
راجع : الحميرى فى : « الروض المعطار » ص 192 ــ 193 نشر ليفـــى بروفنســـال

177) فى نسخة (ط) « ما ظهر » .

178) فى نسختى (ط ، س) « وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش » .

179) الهاجر : الفحش والبذىء من القول .

180) شهر ناجر : كل شهر من شهور الصيف ، لان الابل تنجر فيه اى تعطش .

أسمح (181) للحالب ، ونشيدتها أقرب للطالب ، ومحاسنها أغلب والحكم للغـــالـــــب .

25 ــ « فنيـــانـــة » (182)

قلـت : ففنيـــانـــة ؟

قال : مدينة ، وللخير خدينة ، ما شئت من ظبى غرير ، وعضب طرير (183) ، وغلة وحرير ، وماء نمير ، ودوام للخزين (184) وتعمير . الا أن بردها كثير ، وودقها نثير ، ووشرارها لهم فى الخيار تأثير .

26 ــ « مدينـــة غرناطـــة » (185)

قلت : نمدينـــة غرنـــاطـــة ؟

قال : حضرة سنية ، والشمس (بهـــا)عن مدح المادح غنيـــة ،

---

181) فى نسختى (س ، ر) « اسمع » وهكذا أوردها « سيمونيت » ، ولكنهـــا فى نسختنا أصوب

182) هى« Finana »تقع ضمن مقاطعة المرية على مسافة 30 كم . جنوب شرق وادى آش .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ، ص 172 حاشية 2 .

183) عضب طرير : سيف ذى حد مرهف .

184) فى نسختى (س ، ر) « للتخزين » .

185) هى Granada ومعناها « الرمانة » ، وهى شعارها التاريخى ، تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى الغربى لجبال « سييرانيفادا » ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادى الكبير ، ويخترق فرعه « حدره » المدينة من الوسط ، والى يمينه يقع حى البيازين ، ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبة الحمراء فى الناحية الاخرى . وقد سقطت غرناطة بالتسليم فى يد الملكـــين الكاثوليكيين « فرناندو وايزابيلا » فى 2 يناير 1492 م (2 ربيع الاول 897 هـ). وهى خاتمة الفتوح التى توجت حروب الاسترداد la Reconquista لذلك تحظى

غـــرنـــاطـــــة

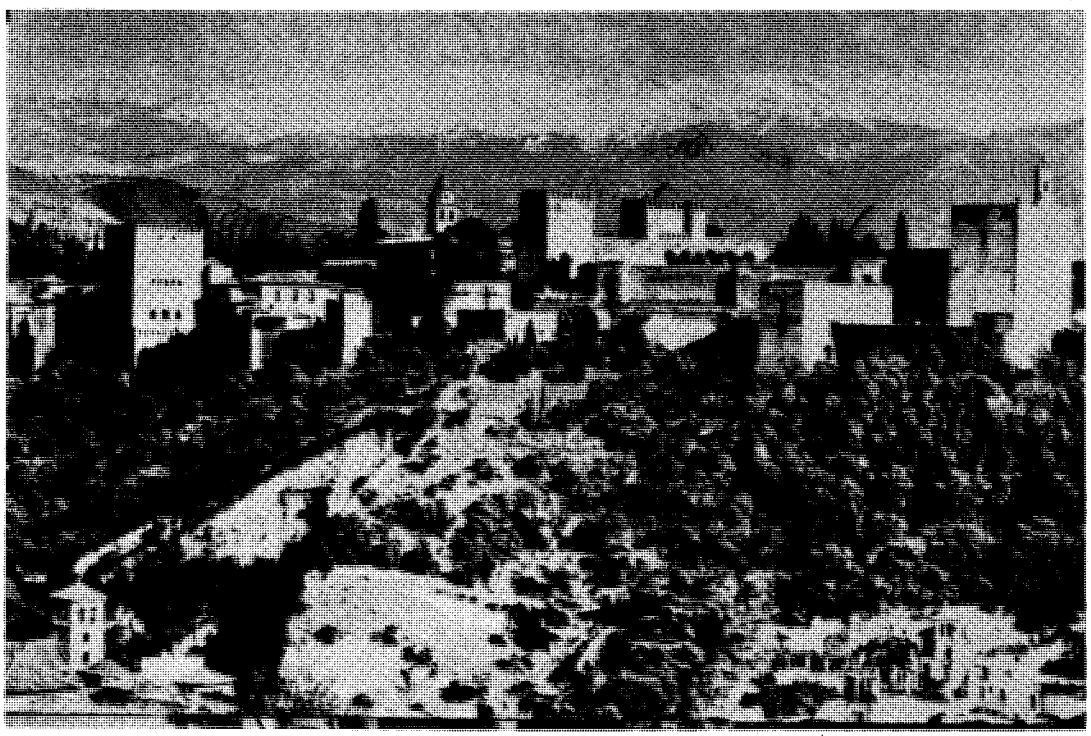

الحمـــراء وقلعـــتـــهـــا

كبرت عن قيل وقال ، وجلت عن (110 : ب) وامق (186) وقال (187) ، وقيدت العقل بعقال ، وأمنت حال حسنها من انتقال . لو خيرت فى حسن الوضع لما زادت وصفا ، ولا أحكمت رصفا ، ولا أخرجت

غرناطة بمنزلة خاصة فى نفوس الاسبان ، وفى التاريخ الاسبانى كذلك ، فهى المرقد الابدى لفاتيحها الكاثوليكيين ، كما حباها ملوك اسبانيا بعنايتهم ، وفى مقدمتهم الامبراطور « شارلكان » الذى أسس جامعتها الشهيرة . وغرناطة اليوم ولاية ومدينة ، فكونها ولاية تشمل مساحة قدرها 5.000 ميل مربع يحدها البحر من الجنوب ، ومن الشمال ولايات قرطبة وجيان ، ومن المشرق ولايتا المرية ومرسية ، ومن الغرب ولاية مالقة ، وتخترقها وتظللها جبال الثلج « سييرانيفادا » ويرويها كل من نهر الوداى الكبير وفرعه نهر شنيل ، وجوها حار ، ولاسيما فى الوديان المنخفضة ، وباردة فى التلال ، وتربتها خصبة جدا ، ولاسيما فى المغرب والجنوب ، ويبلغ سكان الولاية 1.500.000 نسمة تقريبا ، ويتبعها من المدن : وادى آش ، واشكر ، ومترايل ، والحامة ، وسنتافى ، ولوشه ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، واجيجر ، وبسطة ، والمنكب ، وارجية ، وشلوبانية . وغرناطة العاصمة حاليا ثلاثة اقسام ، هى: انتكيرويلا ، وغرناطة ، والبيازين . وهى مدينة زراعية صناعية ، ويبلغ عدد سكانها اليوم حوالى 170.000 نسمة ، وتمتاز بكثرة منشآتها العلمية والفنية ، وقد تأسست جامعتها عام 1531 م فى عصر الامبواطور شارلكان ، وقد بارك المشروع « البابا كليمنت السابع » واصدر مرسوما بانشاء الجامعة التى تشتمل على كليات ، هى : الفلسفة والآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، والصيدلة . ويلحق بكلية الآداب ــ معهدان هما : معهد تاريخ الملكين الكاثوليكيين ، وقد انشىء عام 1943 م ، والثانى مدرسة الابحاث العربية بغرناطة ، والتى تعمل بالتعاون مع مدرسة « بيجيل آسن » للدراسات العربية بمدريد ، ويصدران معا « مجلة الاندلس » ، وبغرناطة عدة متاحف ، منها متحف الحمراء ؛ والمتحف الاثرى ، ومتحف البلدية . أما المعالم والآثار الاندلسية الباقية فهى : الحمراء ، وحى البيازين ، وميدان باب الرملة ، والقيسرية ، والمدرسة ، والخان ، والابواب والاسوار ، وقصر شنيل .

راجع : رحلة ابن بطوطة لهذه المدينة ، ج 2 ص 1187 ، 68 ــ 27 ، وكذا : Simonet, OP. Cit.

186) الوامق : المحب .

187) القال : الكاره .

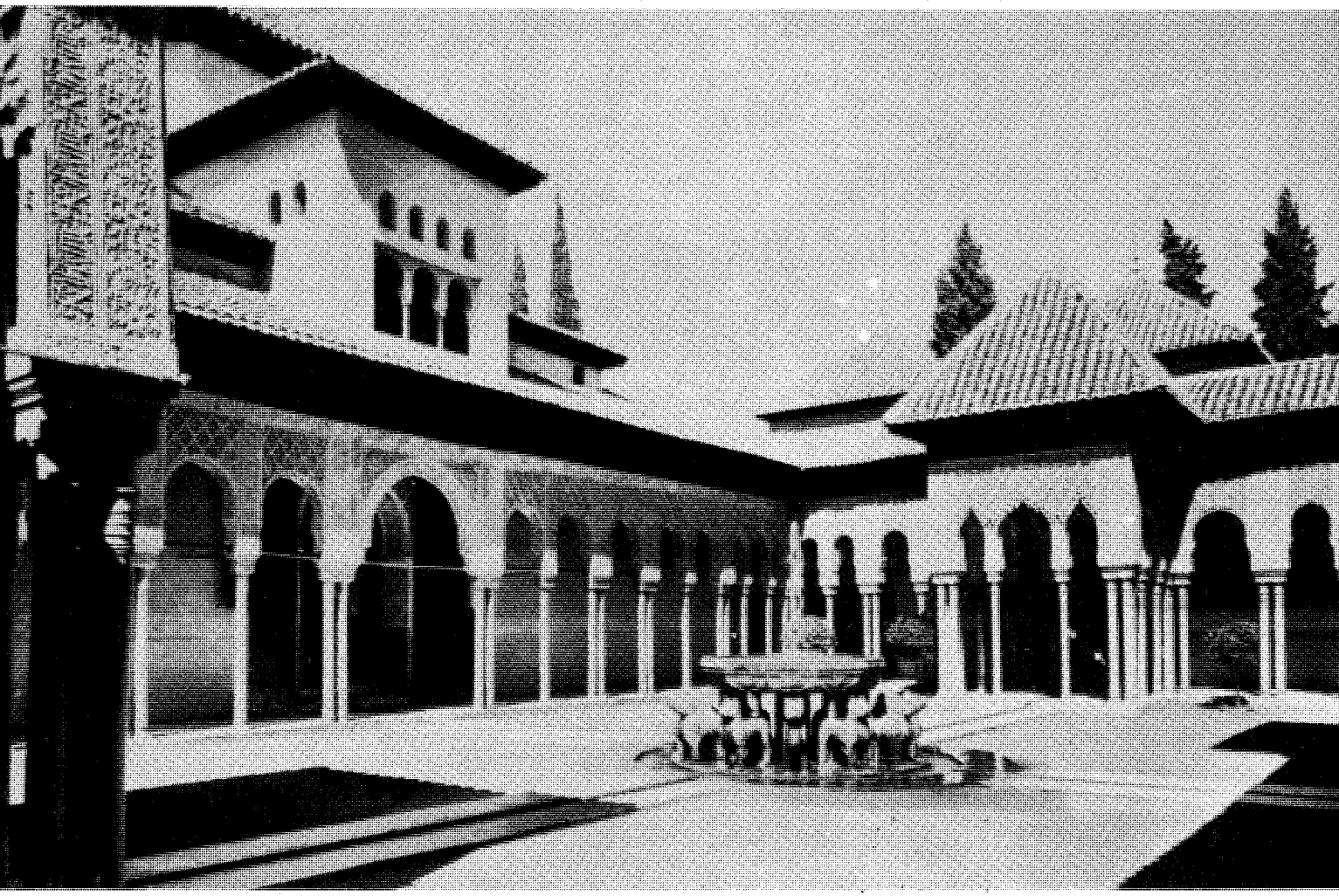

فنـــاء الاسود (قصر الحمراء)

أرضها ريحانا ولا عصفا (188) ، ولا أخذت بأشتات المذاهب ، وأصناف المواهب جدا و (لا) قصفا . كرسيها ظاهر الاشراف، مطل على الاطراف، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف ، وهواؤها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت ـ الجنوب عنها ـ الجبال ، فأمن (189) الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال، وفى جنه من النبال، وانفسحت للشمال (190) ، واستوفت الشروط على الكمال ، وانحدر منها مجاج الجليد على الرمال . وانبسط ـ بين يديها ـ المرج الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من واديه بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين (191) ، وقلد منها اللبات سلوكا تأتى (192) من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا ـ بزخرفها ـ مغترة .

أى واد أفاض من عرفات
فوق حمرائها أتم أفاضة

(111 : أ) ثم لما استقر بالسهل يجرى
شق منها بحلة فضفاضة

كلما انساب كان عضبا صقلا
واذا ما استدار كان مفاضة (193)

---

188) العصف : ورق الزرع .
189) فى نسخة (س) « فأمنت » .
190) الشمال : رياح الشمال .
191) فى نسخة (س) « وولد حيات المذانب تأتى عن الشمال واليمين » .
192) فى نسختى (ر ، س) « تاثر » ، وهكذا أوردها سيمونيت ، والصواب فى نسختنا .
193) مفاضة : درع .

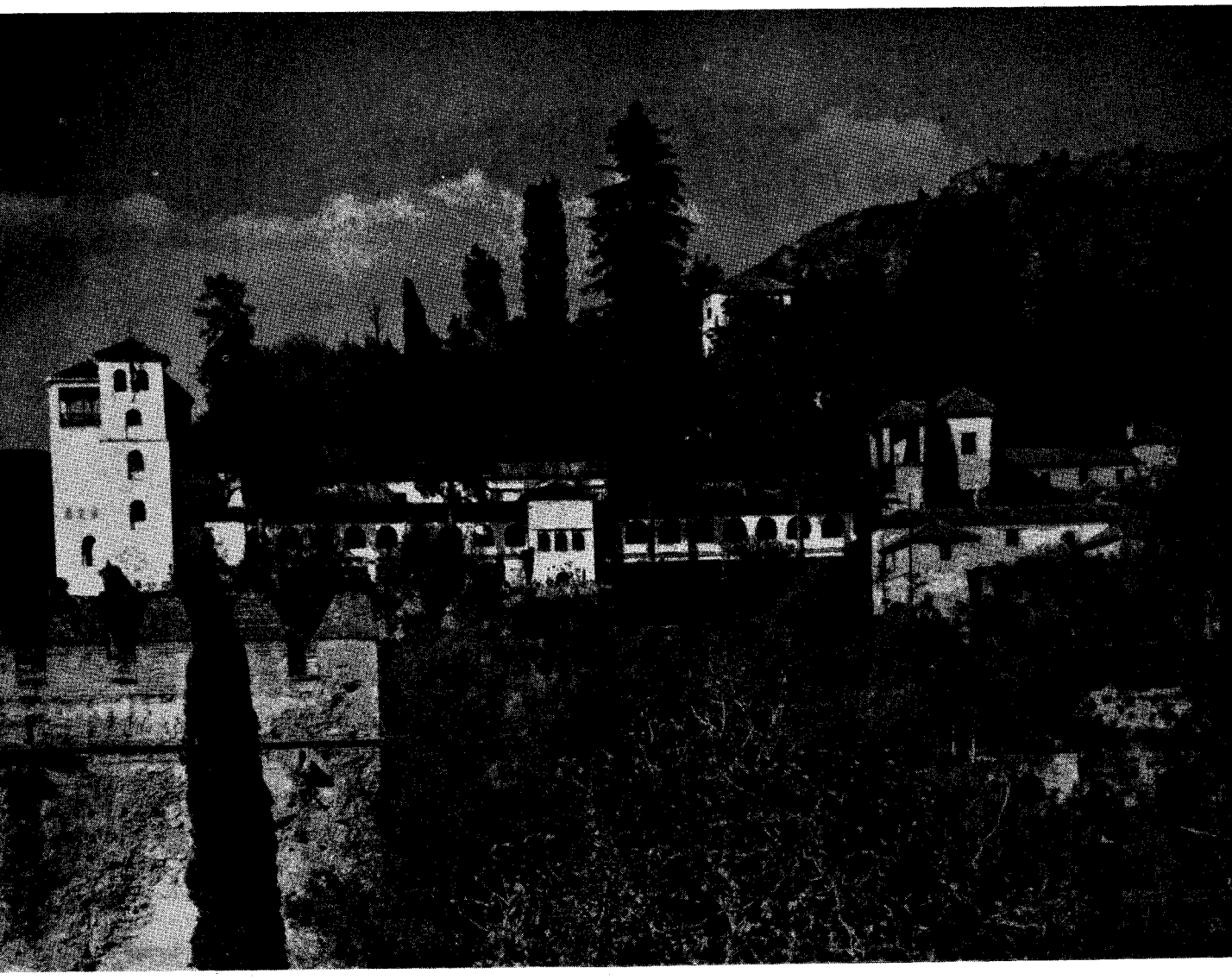

قصر جنـــة العريف من الخارج
(الـحـمـــــراء)

فتعددت القرى والجنات ، وحفت ــ بالامهات منها ــ البنــات ، ورف النبات ، وتدبجت الجنبات ، وتقلدت اللبات ، وطابت بالنواسم المهبات ، ودارت بالاسوار دور السوار المنى والمستخلصات ، ونصبت ــ لعرائس الروض ــ المنصات ، وقعد سلطان الربيع لعرض القصات ، وخطب بلبل الدوح فوجب الانصات ، وتموجت الاعناب ، واستبحر ــ بكل عذب الجنا ــ منها الجناب ، وزينت السماء الدنيا من الابراج العديدة بأبراج ، ذات دقائق وأدراج ، وتنفست الرياح عن أراج ، أذكرت الجنة كل امل ما عند الله وراج .

وتبرجــت بحمرائهــا القصــور مبتسمــة عن بيــض الشرفات ، ساغرة عن صفحات القبات المزخرفات . تقذف ــ بالانهار من بعــد المرتقى ــ فيوض بحورهــا الزرق ، وتناغى ــ أذكار المــآذن بأسمارها ــ نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهلة ، وربت مــن ملوك جلة ، الى بحر التمدن (194) المحيط الاستدارة ، الصادر عن الاحكام والادارة ، ذى المحاسن غير المعارة ، المعجزة لسان (111 : ب) الكناية والاستعارة ، حيث المساجد العتيقة القديمة ، والميازب الحافظة للرى المديمة ، والجسور العريضة ، والعوائد المقدرة (**تقدير الفريضــة ، والاسواق المرقومة الاطواق**) (195) بنفائس الاذواق ، والوجوه الزهر ، والبشرات الرقاق ، والزى الذى غاق زى الآفاق . وملأ قلوب المؤمنين بالاشفــــاق :

بلــد جللهــا اللــــه حسنــا وسنــــى
وأجــر السعــد من حــل لديها رسنــا

---

194) وردت هذه العبارة فى نسختى (ط ، ر) هكذا : « الى التمديــن المحيــط الاستدارة » كما أوردها بهذا سيمونيت ، ولعلها فى نسختنا أوفى

195) هذه الزيادة بين القوسين وجدتها فى نسختنا فقط .

بـركـة الـبـرطـل
(الـحـمـراء)

قــد أجنت سكرا جمــا ورزقا حسنــا
أعجزتعن (196) منتهىالفخر البعيد السنا(197)

يروقك فى أطرافها حسن الصور وجمالها ، وظرف (198) الصنائع وكمالها ، والفعلــة وأعمالهــا ، حتى الاطــلال وانهما لها ، والســؤال وأسمالهـــــا (199) :

كــل عليه مــن المحاسن لمحــة فى كــل طــور للوجود تطــورا
كالروض يعجب فى ابتداء نباتــه واذا استجم به النبات ونـــورا
واذا الجمال المطلق استشهدتــه ألفيت مــا انتحل الخيــال وزورا

(112 : أ) ثم قال : أى أمن (200) عرى من مخافة ، وأى حصافـــة لا تقابلها سخافة ، ولكل شىء آفة . لكنها ــ والله ــ بردها يطفىء حر الحياة ، ويمنع الشفاه عــن رد التحيات ، وأسعارها يشعر معيارهــا بالترهات (201) ، وعدوها يعاطى كئوس الحرب فهاك (202) وهات . الى السكك التى بان خمولها ، ولم يقبل الموضوع محمولها ، والكرب الذى يجده الانسان فيها ، صادف اضافة أو ترفيها ، والمكوس التى تطرد البركة وتنفيها . الى سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونزالة الديار ، وغلاء الخشب والجيار ، وكساد المعايش عند الاضطرار ، واهانة المقابر وهى دار

---

196) فى نسخة (ر ، ى) « من » .
197) فى نسخة (ط) « السعيد لسنا » ، ولكن هذا الشطر الاخير يناسبه ما ورد فى نسختنا ، حيث يستقيم به المعنى .
198) فى نسخة اخرى « وطرف » .
199) السؤال : ج سائل . والاسمال : البالى من الثياب ، وهى مبالغة تكاد تكون غير معقولة .
200) فى نسخة (س) « آمن » .
201) الترهات : ج ترهة ، وهى الاباطيل .
202) فى نسخة (ط) « بهاك » .

جنة العريف
(الحمراء)

القرار ، وقصر الاعمار ، واستحلال الغيبة فى الاسمار ، واحتقار أولى الفضل والوقار ، والتنافس فى العقار ، والشح فى الدرهم والدينار ، باليم والنـــــار (203) .

ثم قال : اللهم غفرا ، وان لم نقل كفرا ، « ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (204) » . ولله در أبى العتاهية (205) حين يقـــــول :

أصبحت الدنيـا ـ لنـا فتنـة والحمـد للـه علـى ذالكـــا
اجتمـع النـاس علـى ذمهـــا وما نرى ـ منهم لهـا ـ تاركـا

---

203) فى نسختى (س ، ر) « واليم » وهكذا أوردها « سيمونيت » ، ولعل الصواب فى نسختنا .

204) آية : 48 من سورة النساء .

205) أبو العتاهية : هو اسماعيل بن القاسم ، شاعر الزهد العربى فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، من بلدة عين التمر بالانبار غرب الكوفة . وقد وقد ولد حوالى عام 130 هـ (747 م) ، ومات حوالى عام . 210 هـ (825 م) درس اللغة العربية والادب ، ثم اتصل بالمهدى والهادى والرشيد والمامون، اشتهر شعره بالزهد فى أواخر حياته ، وخاصة عندما بلغ الخمسين ، وكان للرشيد جارية تسمى « عتبة » عشقها أبو العتاهية فى شبابه ، وتصبب بها كثيرا ، وخاصة فى بدء قصائده التى مدح بها الرشيد ، وكان حائرا بين مذاهب الشعر التى عاصرها ، ولكنه استقر أخيرا على شعر الزهد فأجاده .
راجع : مجلة الرسالة المصرية ـ العدد 3 عـام 1953 م « شاعرنـــا العالمى أبو العتاهية » ـ لعبد المتعال الصعيدى .
ثم « أبو العتاهية » لمحمد احمد برانق ـ القاهرة 1947 م .

27 ـ « الحمـــــة » (206)

قلت : فالحمـــــة ؟

قال : أجل ، الصيد (207) والحجل ، والصحة (208) وان كـان المعتبر (112 : ب) الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجـل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب . والحمة التى حوضها يفهق (209) بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم . قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنها ولا استبدالا ، وأنبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا . لكـن مزارعها لا ترويهـا الجداول ، ولا ينجدها الا الجـود المزاول (210) ، فان أخصب العام أعيا (211) الطعام ، وان أخلـف الانعام ، هلكت الناس بها والانعام . والغواكه يطرف بها الجلب ، وتزر عليها العلب ، وعصيرها لا يليق بالأكل ولا يصلح للحلب ، وبردها شديد وان لم يقض بـه المنقلـب .

---

206) الحمة : هى Alhama بلدة صغيرة تقع قرب مدينة بجانة من أعمال المرية ، وقد اطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة الموجودة بها ، والتى هى مقصد كثير من ذوى العلل والاسقام .
كما يقصد السياح اليوم هذه المدينة للاستشفاء بعينها ، وما تزال بهـا الحمامات العربية والعين حتى الآن .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص 39 ، وابن بطوطة فى رحلتـه ج 2 ص 187 .

207) فى نسخة اخرى « الصحة » .

208) فى نسخة (س) « والصيد » ، وهو ما لا يتناسب والسياق بعد .

209) يفهـق : يعمـر .

210) الجود المزاول : المطر الغزير المعالج .

211) يحتمل معنى (أعيا الطعام) أعجز الناس عن حمله لكثرته وغزرته متى أخصب العـام .

28 ـ « صالحـــة » (212)

قلت : فصـــالحـــة ؟

قال : لولا أنها مناخ لم تذكر ، فليس مما يذم ولا مما يشكر ، وان كان ماؤها فضيا ، ووجه جوها وضيا ، وعصيرها مرضيا ، ورزقهـا أرضيا ، وفضلها ذاتيا لا عرضيا . فهي مهب نسف ، ودار خسف ، وأهلها بهم ، ليس ـ لأحد منهم ـ فهـم .

29 ـ « أليـرة ومنتفـريـد » (213)

قلت : فأليرة ومنتفريـد ؟

قال : بلد ارتفاق (214) ، باجماع واتفاق ، معدن البر الذكى ، والصيد الزكى ، وهد شاهق ، ومصرخ ناهق ، ومعدن بر فائق ، ان لـم يعق ـ من عدو القلعة ـ (113 : أ) عائق .

30 ـ « لـوشـــة » (215)

قلت : فلـوشـــة ؟

قال مرأى بهيج ، ومنظر يروق ويهيج ، ونهر سيال ، وغصن مياد ، وجنات وعيون ، ولذات لا تمطل بها ديون ، وجداول تنضح بها الجوانح ،

---

212) صالحة : مدينة زالت معالمها منذ أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، يطلق عليها الكتاب الاسبان اسم Zalea موقعها قديما كان قرب الحمة .

213) اليرة Illora ومنتفريد Montefrio تقع المدينتان شمال مدينـــة لوشـــة . Loja.

214) ارتفاق : استقرار واعتماد .

215) راجع ما كتباه عن هذه المدينة بأول الكتاب ، عند التعريف بالمؤلف ، فهـــى مسقط رأسه .

ومحاسن يشغل بها عن وكره السائح ، ونعم يذكر ــ بهــا ــ المانع المانح . ما شئت من رحا يدور ، ونطف تشفى ــ بهــا ــ الصدور ، وصيد ووقود ، وأعناب كما زانت اللبات عقود ، وأرانب تحسبهم أيقاظا وهم رقود (217) . الى معدن الملح ، ومعصر الزيت ، والخضر المتكفلــة بخصب البيت ، والمرافق التى لا تحصر الا بعد الكيت . والخارج الذى عضد مسحة الملاحة ، بجدوى الفلاحة . الا أن داخلها حرج الازقة ، وأحوال أهلها مائلة الى الرقة ، وأزقتها قذرة ، وأسباب التطوف (218) بها متعذرة ، ومنازلها ــ لنزائل الجند ــ نازلة ، وعيون العدو ــ لثغرها الشنيــب (219) ــ مغازلـــــة .

31 ــ « أرجــذونـــــة » (220)

قلت : فأرجــذونـــــة ؟

قال : شر دار وطلل لم يبق منه غير جدار ، ومصام يرجع البصــر عنه وهو حاسر (221) ، وعورة ساكنها ــ لعدم الماء ــ مستأثرة (222). وقومها ذو بطر وأشر ، وشيوخها ــ تيوس فى مسالخ بشر ، طعام مــن

---

216) اقتباسا من قوله تعالى : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » الكهف : 18 .

217) فى نسخة (ط ، س) « ومعاصر » .

218) فى نسخة (ط) « التصرف » .

219) الثغر الشنيب : ما كان أبيض الاسنان حسنها ، ويقصد صفحة المدينـــة الجميلة .

220) ارجذونة : هى حاليا Archidona بلدة متوسطة تتبع ولاية مالقة التى لا تبعد عنها كثيرا .

221) اقتباسا من قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئــا وهو حسير » الملك : 4 .

222) مستأســر : قابــض .

يقوت منهم أو يعول ، التيوس والوعول ، وحرثها مغل ، (113 : ب) وخلقهـا حسـد وغـل .

32 ـ « أنتقيـــرة » (223)

قلت : فأنتقيـــرة ؟

قال : محل الحرث والانعام ، ومبذر الطعام ، والمرآة التى يتجلى بها وجه العام ، الرحب والسهل ، والنبات والطفل ، والهشيم والكهل ، والوطن والاهل . ساحت الجداول فى فحصها الافيح وسالت ، وانسابت حيات المذانب (224) فى سقيها الرحب الجوانب وانسالت . لا تشكو مـن نبـو ساحة ، ولا تسفر الا عن ملاحة ، ولا تضاهى فى جدوى فلاحة ، وعظـم ملاحة . الا أنها جرداء الخارج ، بل مارد ومارج (225) . وشدة فرجها فارج . لا تضبطها المسلحة للاتساع ، والدرع الوساع ، قليلة الفواكه ، عديمة الملاطف والمفاكه . أهلها أولو شرور وغرور ، وسلاح مشهور ، وقاهر ومقهـور ، لا تقبل غريبا ، ولا تعدم (226) من العدو تثريبا .

---

223) أنتقيرة : هى حاليا Antequera احدى مدن الاندلس القديمة ، تبعد عن مالقة بحوالى 60 كم ، وهى عبارة عن حصون بين مالقة وغرناطة . ينسب اليها : الحكيم أبو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الانصارى الانتقيرى .
راجع : معجم البلدان ـ للحموى ـ ج 3 ص 259 .

224) المذانب : ج مذنب بوزن منبر ، وهو جدول الماء ذو المسيل الضيق .

225) المارد : العاتى القاسى ، والمارج : الشعلة ذات اللهب الشديد .

226) فى نسخة (س) « عن » بدل « من » .

33 ـ « ذكـــــوان » (227)

قلت : فذكـــــوان ؟

قال : روض وغدير ، وفواكه جلت عن التقدير ، وخورنق وسدير (228) ، ومائدة لا تفوتها فائدة . دارت على الطحن أحجارها ، والتفت أشجارها ، وطاب هواؤها ، وخفق بالمحاسن لواؤها . الا أنها ضالـــة ساقطة ، وحبة ترتقب لاقطة ، لا تدفع عن قرطها وسوارها بأسوارها ، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها ، وقضت بغلة (114 : أ) أعيانهـا حداثة بنيـانهـــا .

34 ـ « قـرطمـــة » (229)

قلت : فقرطمـــة ؟

قال : الكرك (230) ، الذى يؤمن عليه الدرك (231) ، وان عظـم المعترك . جوها صاف ، فى مشتى ومصطاف ، وتربها للبر مصاف، وعصيرها

---

227) ذكوان : عبارة عن حصن يسمى « Coin » موقعه غرب مالقـة ، يرجـع تأسيسه الى أيام عبد الرحمن الثالث الاموى ، أعظم واشهر ملوك بنى أمية (300 ـ 350 هـ = 912 ـ 961 م) ، ويروى ابن عذارى أن السبـب فى اقامته هو مواجهة حصون عمر بن حفصون وأولاده ، الذين أعلنوا عصيانهم لحكومة قرطبة .
راجع : ابن عذارى فى « البيان المغرب » ج 2 ص 189 وكذا :
Simonet Op. cit. p. 81

229) الخورنق والسدير : قصران ينسبان فى التاريخ للنعمان بن المنذر ملـك الحيرة ، وتنسج حولهما طرائف .
راجع : الحموى فى معجم البلدان ج 3 ص 54 ، والاغانى للاصفهانـى ج 2 ص 144 .

229) قرطمـة : هى بالاسبانيـة ، Cartama ، احدى مدن الاندلس الصغيرة .

230) الكرك : نوع من الطير .

231) الدرك : الحراسة .

رنـــــــدة

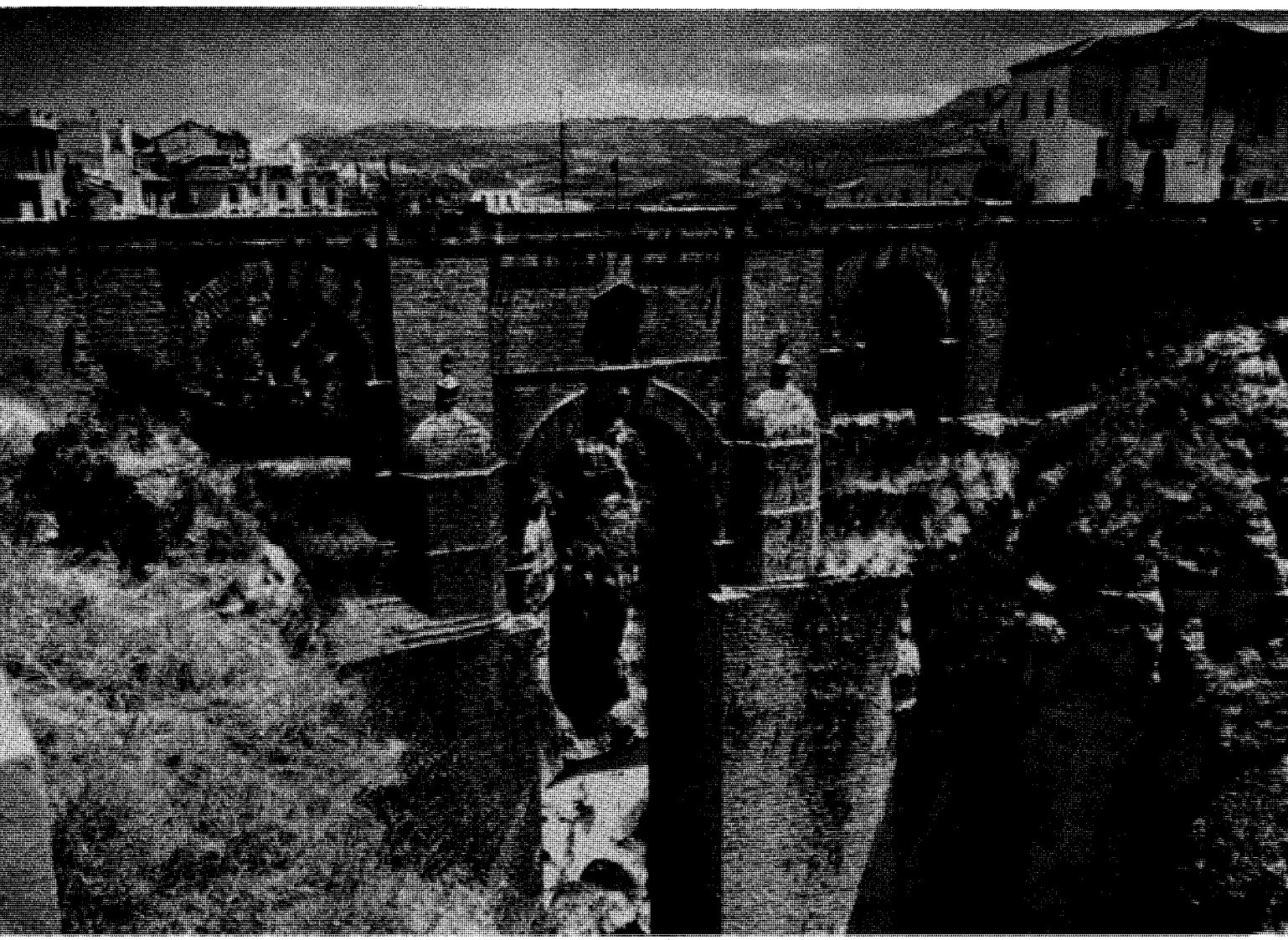

القـنـــطـــرة العربيـــة

بالكثرة ذو اتصاف . الا أن الماء بمعقلها مخزون ، وعتاد موزون ، وأهلها فى الشدائد لا يجزون ، أيديهم ــ بالبخل ــ مغلولة ، وسيوف تشاجرهم مسلـــولـــــة .

35 ــ « رنـــــدة » (232)

قلت : فـــرنـــــدة ؟

قال : أم جهات وحصون ، وشجرة ذات غصون ، وجناب خصيب ، وحمى مصون . بلد زرع وضرع ، وأصل وفرع ، مخازنها بالبر مالية ،

232) رندة : هى « Ronda »تقع غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذى يحمى مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة فى يد الاسبان فى ابريل 1485 (جمادى الاولى 890 هـ) ، اضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت بعد قليل فى ايديهم فى اغسطس 1487 م (شعبان 892 هـ) . وهى تشـــرف على منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى ليبين Guadalebin وقد وصف ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقولـــه : « وهى من امنع معاقل المسلمين واجملها وصفا » ، ويبلغ سكان رنـــــدة حاليا اكثر من 35.000 نسمة ، فهى مدينة متوسطة الحجم ، ويغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وعليها المسحة الاندلسية . هذا ، واهم المعالـــم والآثار الاندلسية الباقية بها أطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة العربية عند مدخل المدينة الغربى ، وهى ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامـــات العربية ، وهى اطلال دارسة من حمامات اندلسية قديمة ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وكذلك من الآثار « المنارة » فى نهاية المدينة ، ويبلـــغ طولها حوالى 12 مترا ، والظاهر انها من ايام الموحدين لشبهها بمآذنهم ، ثم قصر الامير ابى مالك ، ويعرف فى رندة باسم« Casa del Gigante » وهو اسم الاسرة التى تملكه ، ويقع القصر فى طرف المدينة الجنوبى ، وكذلك باب المقابر Puerta de Almocabar ويقع فى حى فرانسسكو . وينسب الى هذه المدينة الفقيه ابن عباد الرندى .

راجع ما كتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة الاسلامية فى
Enc. ISI. III, P. 1254 ومجلة الاندلس .472 (1944) Al-Andalus

رنـــــــدة

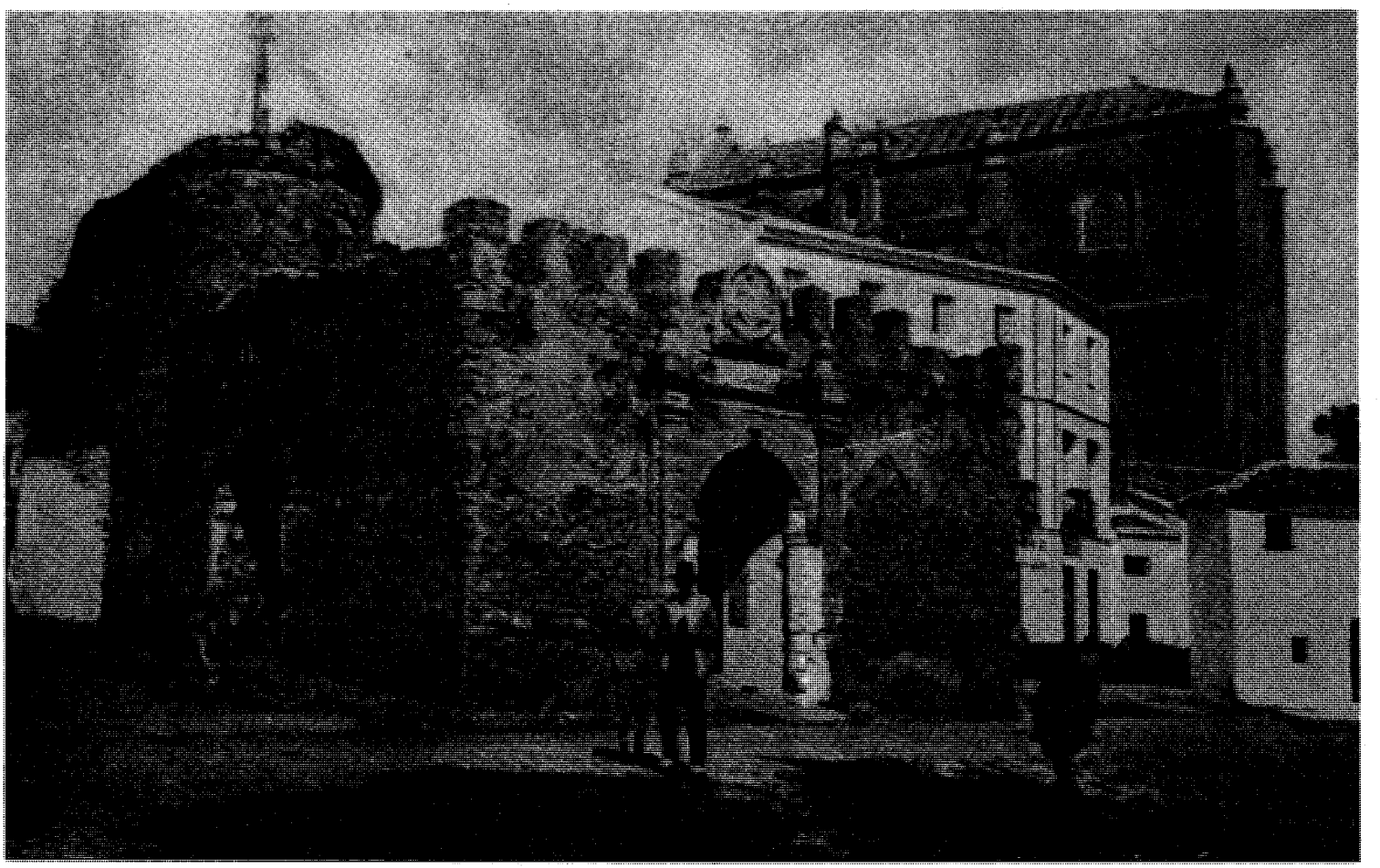

بـــاب المـــقـــابـــر

وأقواتها جديدة وبالية ، ونعمها ـ بجوار الجبل ـ متوالية . وهى بلد أعيان وصدور (233) ، وشموس وبدور ، ودور أى ودور ، وماء واديها يتوصل اليه فى جدور ، محكم مقدور . وفى أهلها فضاضة (234) وغضاضة (235) ، ما فى الكلف بها غضاضة (236) ، يلبس نساؤها الموق (237) ، على الاملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المعشوق ، وينعشن قلب المشوق ، بالطيب المنشوق . الا أن العدو طوى ذيل بردها ، وغصب بنيانها ، وكيف السبيل الى ردها ، وأضاق خارجها ، وخفض معارجها ، وأعلى طائرها ودارجها (238) .

فلما بلغ هذا الحد قال : هل اكتفيت ؟ فقد شرحت صدرك (114 : ب) وشفيت ، وبما طلبت منى قد وفيت . يا بنى كأنى بالصباح السافر ، وأدهم الظلام النافر ، قد أجفل أمام مقنبه (239) الوافر ، وترك من الهلال نعل الحافر . ونفسى مطيتى ، وقد بلغت الليلة طيتى (240) ، وأجزلت عطيتى ، فلنجم بالحمض (241) ، ونلم بالغمض ، وأنا بعد

---

233) فى نسخة (ط) « وجدور » ولعل الصواب فى نسختنا .

234) فضاضة : سعة الصدر .

235) غضاضة : حلم .

236) غضاضة : حط من القدر . وفى (س) ما فى الكلف بها « حضاضة » ، أى : ما فى الكلف بها شىء .

237) الموق : خف غليظ تلبسه النساء فوق خف أرق منه .

238) كناية عن أن العدو بغاراته يثير طيورها فتعلو فى الجو ، وفى الوقت نفسه يثير غبار طرقها .

239) المقنب : الوعاء للصائد يجعل فيه ما يصيده .

240) طيتى : حاجتى .

241) فلنجم بالحمض: الحمض هو الفاكهة، والابل لها طعامها ولها حمضها، ويقصد بالتعبير : المذاكرة .

نزيلك ، ان سرنى جزيلك ، وعديلك ان ضحك الى منديلك ، وسميرك ان روانى نميرك . فبادرت البدرة ففضضتها ، والصرة فافتضضتها ، والعيبة (242) فنفضتها ، والمعادن فأفضتها . فقال : بوركت من مواس، وانشد قول أبى نواس (243) :

ما من يد فى الناس واحدة كيد أبو العباس (244) أولاها
نام الثقات على مضاجعهم وسرى الى نفسى فأحياها

ثم قال : نم فى أمان ، من خطوب الزمان ، وقم فى ضمان ، من وقاية الرحمن . فلعمرى وما عمرى على بهين ، ولا الحلف على بمتعين ، لو كان الجود ثمرا لكنت لبابه ، أو عمرا لكنت شبابه ، أو منزلا لكنت بابه .

فما هو الا أن كحلت جفنى بميل الرقاد ، وقدت طرفه سلس المقاد، وقام قيم الخان الى عادة الافتقاد ، وبادر سراجه بالايقاد ، ونظرت

---

242) العيبة : الزنبيل .

243) ابو نواس : هو الشاعر ابو الحسن بن هانىء الفارسى الاصل ، المولود عام 140 هـ (747 م) عاصر هارون الرشيد الخليفة العباسى ثم ابنه الامين ، فكان شاعرهما . اشتهر بمجونه وتهتكه ، وكثيرا ما حبساه لظهور ذلك فى شعره ، توفى بعد مقتل الامين عام 199 هـ (813 م) ببغداد . ويعتبر ابو نواس ممثل المدرسة الشعرية الحديثة ، وقد ظهر تجديده فى خمرياته وغزله بالمذكر . فهو فى هذين المجالين خصب الفكرة ، واسع الخبرة ، بحيث يستطيع أن يتغنى بمحاسنهما فى صور متجددة .
راجع : ديوان أبى نواس « المقدمة » ج 1 ص 248 ، نشر وتحقيق ايفالد فاغر (القاهرة عام 1958 م) .

244) يعنى بابى العباس الوزير « الفضل بن الربيع » المكنى بابى العباس . وابو نواس بهذين البيتين يمدح ابا العباس هذا ، بعد ان تم اطلاقه من السجن على يده . وقوله « وسرى الى نفسى .. » يعنى : سرى الممدوح الى نفسه فأحياها ، بعد أن انقذه من السجن .

(115 : أ) الى مضجع الشيخ ليس فيه الا زئبر أطماره (245) ، وروث حماره ، فخرجت لايثاره ، مقتفيا لآثاره ، فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره (246) ، وسرت وفى قلبى ــ لبينه وذهاب أثره وعينه ــ حرقة ، وقلت متأسيا : لكل اجتماع من خليلين فرقة .

⁂

245) زئبر أطماره : أثر ثيابه البالية .

246) اقتباسا من قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » سورة القصص ، آية: 81.

الفصل الخامس

المجلس الثاني

(116 : أ) المجلس الثاني

قال المخبر : فلما اندمل جرح الفراق بعد طول ، وزمان مطول (1) ومحا ــ رسم التذكر ــ تكرار فصول ، ونصول خضاب (2) ، وخضاب نصول (3) ، بينا أنا ذات يوم فى بعض أسواق الغبار ، أسرح طرف الاعتبار ، فى أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب ، ما بين مشتمل للصماء يلويها ، ولائث للعمامة لا يسويها ، ومتلفظ بالشهادة وهو لا ينويها ، وصاعد من غور ، ومتظلم من جور ، وممسك بذنب عير أو روق (4) ثور ، يموجون ، ومن الاجداث يخرجون ، كأنهم النمل نشرها وقد برزت للشمس ، من مطر الامس ، يشيرون (116 : ب) بأجنحة الاكسية ، ويتساقطون على ثماد القلب (5) وأسئار الاحسية (6) ، وقد اصطف ذابحو الجزور ، وبائعو اللبوب (7) والبذور (8) ولصق بالامليـاء (9) حللة العقد وشهدة الزور ، ونظرت فى ذلك المجتمع الهائل المرأى والمسمع .

الى درسة غى ، وطهاة كى ، ورقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون (10) ، وسل سيف

---

1) فى نسخة (ط) « ممطول » .
2) نصول خضاب : ذهاب الحناء .
3) خضاب نصول : حناء مزالة .
4) روق ثور : قرن ثور .
5) ثماد القلب : حفر الآبار .
6) أسئار الاحسية : بقايا الماء فى المستنقعات .
7) اللبوب : الجوز واللوز .
8) البزور والابزار : التوابل .
9) الامليـاء : ج ملى ، كغنى وزنا ومعنى .
10) قيطون : يطلقها اهل المغرب على الخيمة ، والجمع : قياطين .

لاطون (11) ، وتحدى برقية لديغ ومداواة مبطون ، قد اشتمل بسمل غفاره وبين يديه غبار فى جلد غاره ، وطحن من اطعام كفارة (12) . وأمامه تلميذ قد شمر الاكمام ، والتفت الخلف والامام ، وصرف لوحى لحظه ــ الاهتمام . وهو يأسو ويجرح ، ويتكلم بلسان القوم ثم يشرح ، ويقيد من حضره بقيد العزيمة فلا يبرح . ويقول :

أيها البهم السارح ، والحزب المسرور بما لديه الفارح ، والسرب الذى تقتاته لولاة البغى الجوارح (13) . صرفتم غروب اعتنائكم ، لمآرب نسائكم وأبنائكم ، وذهلتم عمن حل بفنائكم ، وجعلتم تطعمون وتجمعون ، « انما يستجيب الذين يسمعون » (14) . من وقعت على منكم عينه ، فقد رأى فاتح أقفال الاسرار ، ومثبت (117 : أ) الفرار ، ومصمت أولئك الصرار ، ومغور مياه الآبار بيسير الغبار ، ومخرج الاضمار فى المضمار ، ومذهب المس وطارد العمار (15) .

أنا قاطع الدماء اذا نزفت ، وكاشف الغماء اذا ما انكشفت ، أهنا (16) الابل فلا تجرب ، وأخط حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب ، وأدخن بها فلا تتسلل الحية ولا تدب العقرب ، ان نعيت الشمس ــ لوقت محدود ــ طمس فيها نورها (17) ، وان وعدت الارض برى

---

11) يرجح أستاذنا عبد الله كنون أنها ربما تكون مشتقة من الكلمة الاسبانية لاطون « Laton »بمعنى النحاس ، فقد استعملها المقرى فى كتابه « نفح الطيب » بهذا المعنى .

12) ولاة البغى : يقصد بهم شرطة المكوس .

13) كان العامة يعتقدون نوعا من الشفاء فى مثل هذه الامور .

14) اقتباسا من قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه يرجعون » سورة الانعام ، آية : 36 .

15) العمار : الجن يسكنون البيوت .

16) اهنا الابل : أطلى الابل بالقطران .

17) كناية عن تنبؤه بأحوال الطقس .

محمود فار تنورها (18) ، وان كتبت لعقد النكاح انحلت ، وان عقلت خطى الضالة وقفت حيث حلت ، وان زجرت الجنون تركت وخلت ، وان استثرت الدفائن ألقت الارض ما فيها وتخلت (19) . أنا جردت البيضة الشقراء ، وزوجت الفتى الشرقى من الجارية العذراء . أنا صافحت الملك، ورصدت الفلك ، ومزجت ــ بسر الحكمة ــ الضياء والحلك ، فاحتقرت الملــك وما ملــك .

دعوت علم الطباع فأطاع ، وقطعت شكوك الهيئة بالشكل القطاع ، وقلت بالقدر وبالاستطاع ، وسبقت فى صناعة البرهان (20) يوم الرهان . ورضت صعاب الرياضيات حتى ذل قيادها ، وسهل انقيادها ، وعدلت الكواكب (117 : ب) واختبرت القلوب اليابانية والمناكب ، وبشرت عند رجوع خنسها (21) بالغيوث السواكب ، ووثقت بالامتحان ، على صناعة الالحان ، وقرأت ما بعد علم الطبيعة ، وناظرت قسيس البيعة (22) ، وأعملت فى الاصول مرهفة النصول ، وأحكمت أمزجة الطباع وطبائع الفصول . وامتزت بالبروع فى علم الفروع ، وقمت فى العهد الحديث بالحديث، وحزت فى علم اللسان درجة الاحسان . وحققت قسمة الفروض،

---

18) فــار تنورها : فاضت مياهها .

19) اقتباسا من قوله تعالى : « واذا الارض مدت ، والقت ما فيها وتخلت » سورة الانشقاق ، آية 3 ، 4 .

20) يقصد علم المنطق والمناظرة فى البحث العلمى .

21) خنسها : الخنس ، قيل : الكواكب كلها ، وقيل : السيارات منها فقط ، وقيل : الخنس ، هى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد . وقد أقسم اللــه تعالى بها فى قوله : « فلا اقسم بالخنس ، الجوار الكنس ... انه لقول رسول كريم » آية 15 ــ 19 من سورة التكوير .

22) قسيس البيعة : يرمى بهذا الى ما كان يحدث احيانا بين بعض المسيحيــين المستعربين من جهة ، وبين الاندلسيين الذين اتقنوا لغة المسيحيين من جهة اخرى ، فهؤلاء واولئك كثيرا ما التحما فى مجادلات دينية .
راجع ابن الخطيب فى : الاحاطة ، لوحة 111 ، 222 من مخطوطة جاييجوس بالاسكوريال .

وعدلت الشعر بميزان العروض ، ونظمت ونثرت ، وأكثرت فما عثرت . وعبرت حلم النوم ، ولبست الخرقة بشرط القوم (23) ، ولزمت خلوة الذكر ومعتكف الصوم .

وأما معرفتى بالاخبار ، وزرع الارض بالاشبار ، ما بين جليقية (24) الى الانبار (25) ، وأوصاف المدن الكبار ــ فقد ثبت بالاختبـــار .

قال : فأثار قديمى ، وأذكرنى بنديمى ، فقلت : الله أكبر ، أوضح ــ الخبـــر ــ المخبر . فخضت اليه ومن بينى وبينه وهم بحر زاخر ، وأول ليس له آخر ، وبهم يسخر منه الساخر ، ما بين كبش مجتـــر وعجل ناخر (26) . وقلت : أيها الحبر ، ضالتى قريب أمدها ، معروف معتمدها . وعلى ذلك فالشكر (118 : أ) ممنوح ، والرفد طوفان نوح . فألان (27) العريكة ، وسلم النطع والاريكـــة ، وقال : أجل واعرض ،

---

23) بشرط القوم : يعنى وفق شروط قوم الصوفية فى اللباس المرقع .

24) جليقية : ادارة اسبانية انشأها « فرناندو الاول » لابنه « غارسيا » ، ضمت الى قشتالة عام 1662 م = 1073 هـ ، وتمتع امراؤها ببعض الاستقلال الذاتـــى الى أواخر القرن الخامس عشر ، موقعها شمالى الاندلس فى اقصى الغرب. وقد وصل الى هذا المكان « موسى بن نصير » لما فتح الاندلس ، وينسب الى هذه الناحية « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » من الخارجين بالاندلس أيام بنى امية .
راجع : المعجم للحموى ج 3 ص 257 .

25) الانبار : آثار مدينة قديمة فى العراق على ضفة الفرات ، فتحها خالد بن الوليد القائد الاسلامى على عهد الخليفة أبى بكر الصديق عام 634 هـ (1236 م). وكانت مقرا للخلافة الاسلامية حتى تأسست بغداد ، فأضحت حاضرة الخلافة حيث جددها أبو العباس السفاح ، أول خليفة عباسى . وينسب لهذه المدينة القاضى أحمد بن نصر بن الحسين الانبارى .
راجع : المعجم للحموى ج 3 ص 257 .

26) عجل ناخر : أى يمد نفسه من خياشيمه .

27) فى نسخة (س) « فألن » بصيغة الامر ، ولعل سياق المحاورة يتمشى مـــع نسختنا .

وأنزل السؤال وافرض . فقلت : بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون ، وقد ظفرت قبلك بنقاب (28) ، وعود احتقاب ، وسارب أنقاب (29) ، حصل به من طلبى الشطر (30) ، وبك يتم الشكر (31) ، ويعظم الخطر . فقال : الناس متهم (32) ومنجد (33) ، (**وخائل وممجد**)، ولا تجود يد الا بما تجد .

والله المرشد . وجعل ينشد :

اذا المشكلات تصدين لى كشفت غوامضها بالنظر
ولست بامعة فى الرجال أسائل هذا وذا : ما الخبر (34)
ولكننى مذرب الاصغرين أبين ــ مع ما مضى ــ ما غبر (35)

ثم قال : هات ، أمن عقدك الشبهات .

---

28) نقاب : رجل علامة .

29) سارب انقاب : السارب ، هو الذاهب على وجهه بالانقاب ، وهى الطرق فى الجبل .

30) فى نسخة (س) « الشكر » .

31) فى نسخة « الشطر » .

32) متهم : ساكن تهامة ، وهى أراضى السهل الساحلى الضيق ، الممتد من شبه جزيرة سيناء شمالا الى أطراف اليمن جنوبا ، وفيها مدن نجران وجدة وصنعاء ، وسكانها يميل بعضهم الى الزراعة بينما يميل البعض الى التجارة والملاحة وصيد اللؤلؤ .

33) منجد : ساكن نجد ، ونجد ، اقليم بالسعودية ، والعاصمة الرياض ، وهى بلاد جبلية فى شمال شبه جزيرة العرب ، نقيضها تهامة ، وهى البلاد الساحلية الغربية هناك .

34) فى نسختى (س ، ر) « وما الخبر » بالواو ، وهو خطأ فى الوزن، وهكذا أوردها موللر .

35) فى نسختى (ط ، س) « وما غبر » ، وهو خطأ فى الوزن أيضا ، وقد أوردها موللر هكذا أيضا .

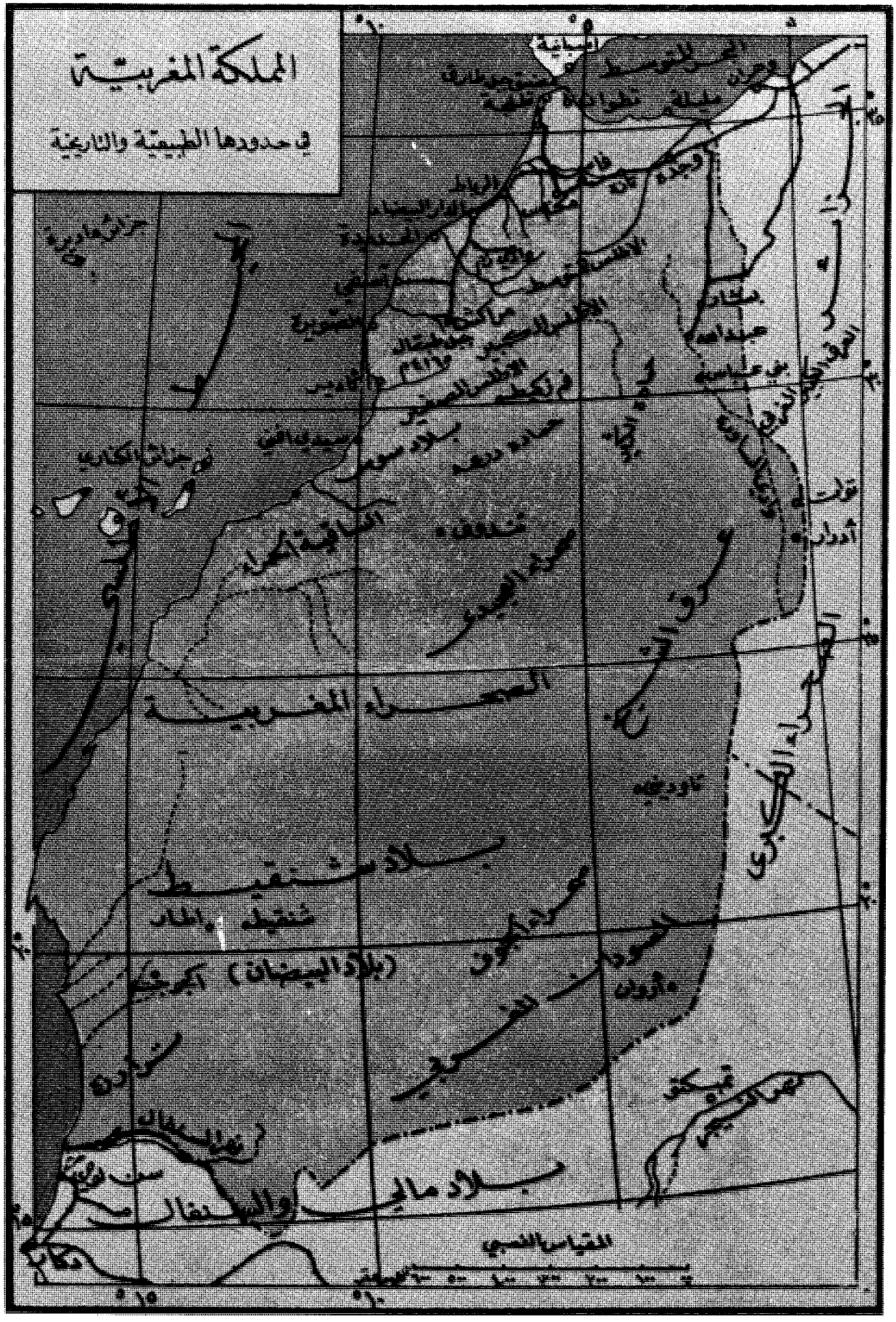
المملكة المغربية
في حدودها الطبيعية والتاريخية
الصحراء المغربية
بلاد شنقيط
(بلاد البيضان)
بلاد مالي
وادي درعة
تافيلالت
تيندوف
تمبكتو
القياس النسبي

1 ـ « بـــــادس » (36)

قلت : ما تقول فى بـــادس ؟

قال : بدأت بحمدلة الرقعة ، وبركة البقعة ، ومدفن الولى (37) ، والنحر غير العاطـــل ولا الخلى من الحلى . بلد السراوة والشجاعة ، والايثـــار علـــى فرض المجاعـــة ، والنفوس الاوابـــة (الـــى اللـــه) الرجاعة ، حيث البر والحوت ، والخشب الذى ينشأ منه كل منحوت ، والبأس والاقدام ، والفاكهة الطيبة والادام ، (118 : ب) ورب الجبال ، وفضل للمدافعة لصهب السبال . الا أنها موحشة الخارج ، وعـــرة المعارج ، مجاورة غمارة (38) بالمارد والمارج ، فهم ذوو دبيب ، فى مدارج تلك الغرابيب (39) ، وكيدهم ـ ببركة الشيخ ـ فى تتبيب (40) .

---

36) بادس : مدينة اندثرت فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، حيث خربها الاسبان ، ويقال لها : « باديس » « وبادس غمارة » ، كما يقال لها «بادس فاس » تمييزا لها عن « بادس الزاب » الواقعة بالجزائر ، أما الاولى فكانت تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وتبعد عن « الحسيمة » بنحو 40 كم راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 من السنة الاولى 1962 م ، وكـــذا ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 2 ص 29 .

37) يقصد بالولى هذا : أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى البادسى ، نسبة الى بادس . (640 ـ 734 هـ = 1242 ـ 1333 م) عالم متصوف ذكره ابن خلدون عرضا فى حديثه عن قبائل البربر . عاصر الملك ابا الحسن المرينى ، وقد عثر مؤخرا على مخطوط الفه « أبو محمد الاوربى » فى مناقب أبى يعقوب البادسى .
راجع : صحيفة الميثاق المغربية عدد 7 ، 8 من السنة الاولى 1962 م .

38) غمارة : قبيلة بربرية ، وتسمى الجبال التى تسكنها بهذا الاسم أيضا .

39) مدارج غرابيب : طرق حالكة السواد .

40) تتبيب : هـــــلاك .

2 ـ « سبتـــــة » (41)

قلت : فمدينـــة سبتـــة ؟

قال : عروس المجلى ، وثنية الصباح الاجلى . تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالاعمال الثقيلة . واذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش (42) شمامة أزهارها ، والمنارة منازه شوارها (43) ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارهـــا ، وتخيم الخواطر بين أنجادهـــا وأغوارها ! ! الى المينا الفلكية ، والمراسى (44) الفلكية ، والركيـــة الزكية (45) ، غير المنزورة ولا البكية (46) ذات الوقود الجزل ، المعد للازل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزهر السحن ،

---

41) سبتة : هى Ceuta احدى المدن الساحلية على شواطىء البحر الابيـــض المتوسط شمال المغرب ، ولكنها تتبع حاليا اسبانيا ، لها تاريخها على مـــر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسية هامة ، وقـــد اتخذها الامويون فى العصر الاسلامى قاعدة يصدون منها تيار الفاطميـــين . وفى القرن الثالث عشر استولت عليها اسرة اندلسية اسمها « بنى العزفى »، وبقيت تحت حكم بنى الاحمر فترة من الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، واخيرا استولى عليها الاسبان ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . ومنها « مرانة السبتى » من أعلم الناس بالحساب والهندســـة والفرائض والتأليف ، ومن تلاميذته ابن مرانة الفرضى « الحاســـب » ، يقولون : انه كان من اهل بلده ، وكان المعتمد بن عباد يقول : « اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر : « ابن غازى » الخطيب ، « وابن عطاء» الكاتب ، « وابن مرانة » الفرضى .
انظر : معجم البلدان للحموى ج 10 ص 182 ـ 183 .

42) بنيونش : قرية تجاور سبتة من الغرب ، لا زالت آثارها باقية حتى اليوم .

43) شوارها : حسنها .

44) فى نسخة « س » والمراقى ، بدل « والمراسى » .

45) الركية الزكية : البئر الطاهرة .

46) البئر غير البكية : هى التى لا تفيض فيض الدموع حين البكاء ، والتعبير عموما كناية عن أن منسوب المياه فيها معتدل .

سبتة

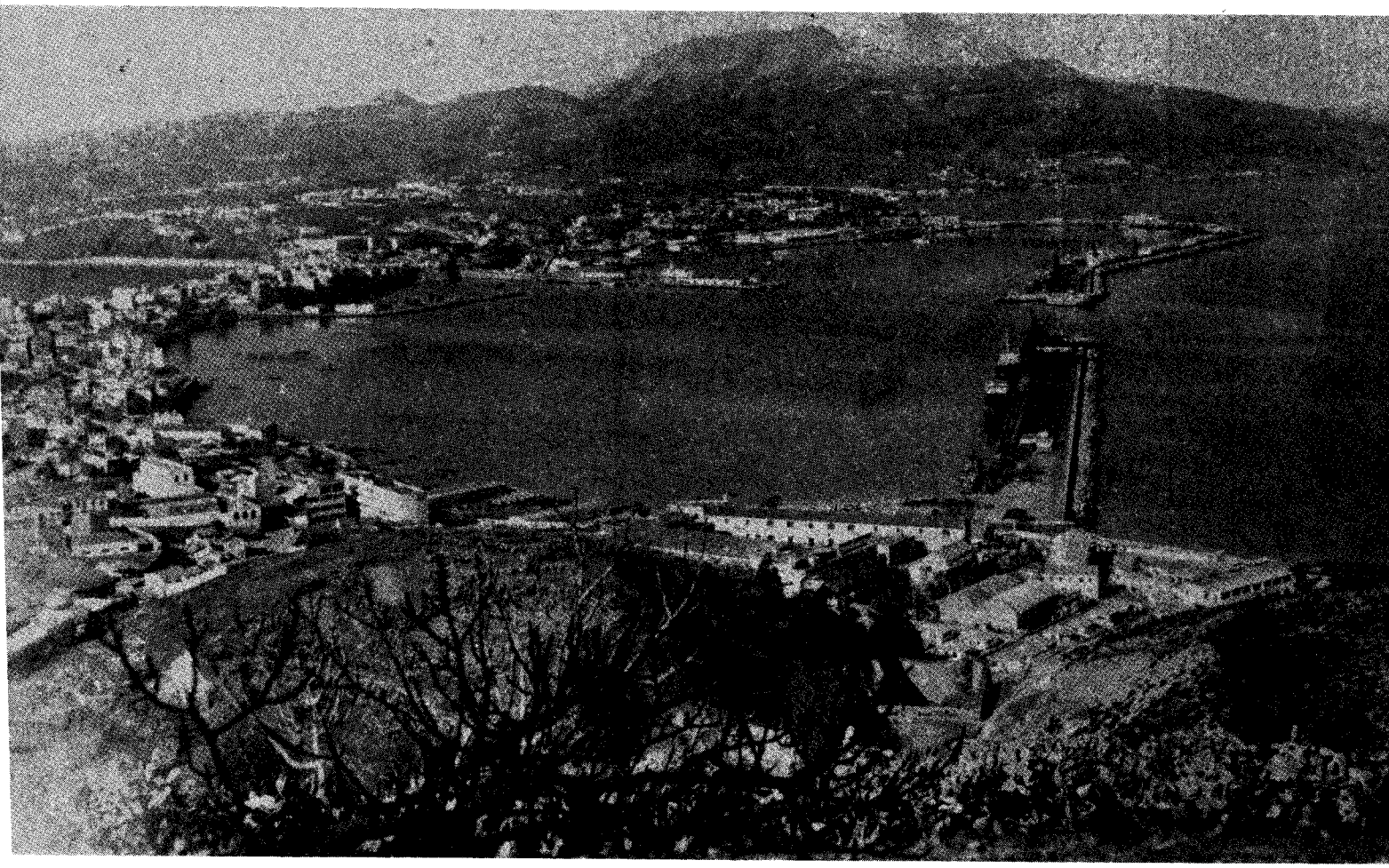

ساحل المدينة وجبل بنيونش

المضنون بها عن المحـــن . دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحـــرب المناشبة ، والاسطول المرهوب ، المحذور الالهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والاثر المعروف المنسوب . كرسى الامراء والاشراف ، والوسيطة لخامس أقاليـــم البسيطة ، فـــلا (119 : أ) حظ لهـــا فى الانحـــــــراف .

بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحلل الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (47) ، الامينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافـــــل العصير والحرير والكتان ، وكفاهـــا السكنـــى ببنيونش (48) فى فصـــول الزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الاثمان . والمدفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم (49) الا أنها فاغرة أفواه الجيوب (50) للغيث المصبوب ، عرضة للريـــاح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو (52) فيه المضاجع بالجنوب . وناهيك (59) بحسنة تعد من الذنـــوب ، فأحـــوال أهلها رقيقة (52) ، وتكلفهـــم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقـــة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم ــ فى تقدير الارزاق ــ عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحالجم ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم ، بالبشير الهاجم (53) ،

---

47) اقتباسا من قوله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » سورة النحل ، آية : 9.

48) هى « Boliones » قرية تجاور سبتة من الغرب ، كانت تشتهر بحماماتهـــا وبساتينها وانهارها ، ويسمى الجبل هناك باسمها .

49) الحلوم : العقول ، والمفرد ، حلم .

50) فى نسخة (ط) « الجنوب » وهى انسب للسياق .

51) ناهيك : حسبك ، بمعنى يكفيك .

52) فى نسخة (س) « دقيقة » وكلتاهما مناسبة للمعنى العام .

53) كناية عن حبهم الشديد لبلدهم ، فهم مفتونون بها ، كفتنة الحزين ببشير مندفع نحوه ، او كفتنة راعى ارض مجدبة تدفق عليها المطر .

وراعى الجديب بالمطر الساجم (54) ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ؛ (119 : ب) الشك ــ عنــدى ــ فى مكة والمدينة .

3 ــ « طنجـــــة » (55)

قلــت : فطنجـــــة ؟

قال : المدينة العادية ، والبقعة التى ليست بالخبيثة ولا بالردية ، اليها بالاندلس كانت نسبة المغاربة ، والكتائب المحاربة ، والرفق (56) السائحة فى الارض الضاربة . سورها ليس بمثلوم ، وساكنها غير ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارها ليست بدار لوم . ميدان أفراس كبير ، ومعدن هند (57) وذكير (58) . مثلث بين المنار والقالة «59» ، وحكماهــا فى التفضيل ، فأشكل الحكم وتعذرت المقالة ، ولم يصح البيع ولا وجبت الاقالة . هذى سماء بروج ، وهذى أزهار مروج ، وكلاهما مركب سرور

---

54) المطر الساجم : الكثير المنصب .

55) طنجة :« Tanger »احدى مدن المغرب القديمة ، موقعها على المحيط الاطلسى بينها وبين أوروبا مسافة مضيق جبل طارق . عرفها الفينيقيون مركزا تجاريا هاما ، ثم القرطاجنيون كذلك فى تبادل السلع الهامة ، وتموين السفن التى فى طريقها الى المحيط . ولما ظهرت الدولة الرومانية واكتسحت الدولـــــة القرطاجنية فرضت سيادتها ــ ضمن ما فرضت ــ على طنجة ، والتى عرفت ازدهارا تجاريا ضخما بين المغرب ــ عن طريقها ــ وبين روما مركز الدولة الرومانية . وتوالى الزمن على المدينة ، حتى جاء عقبة بن نافع وموسى بن نصير الفاتحان الاسلاميان للمغرب عام 62 هـ (681 م) ، ومن يومها وطنجة العربية الاسلامية محافظة على طابعها ، حتى غدت قطعة من المغرب عام 1956 م (1376 هـ) .

56) الرفــق : المعونـــة .

57) هند : السيف . ويقال أيضا للمائة من الابل فما فوقها .

58) ذكير : الذكير هو أجود الحديد .

59) القالة : يعنى بها الميناء ، وهى بالاسبانية : La Cala

طنجة

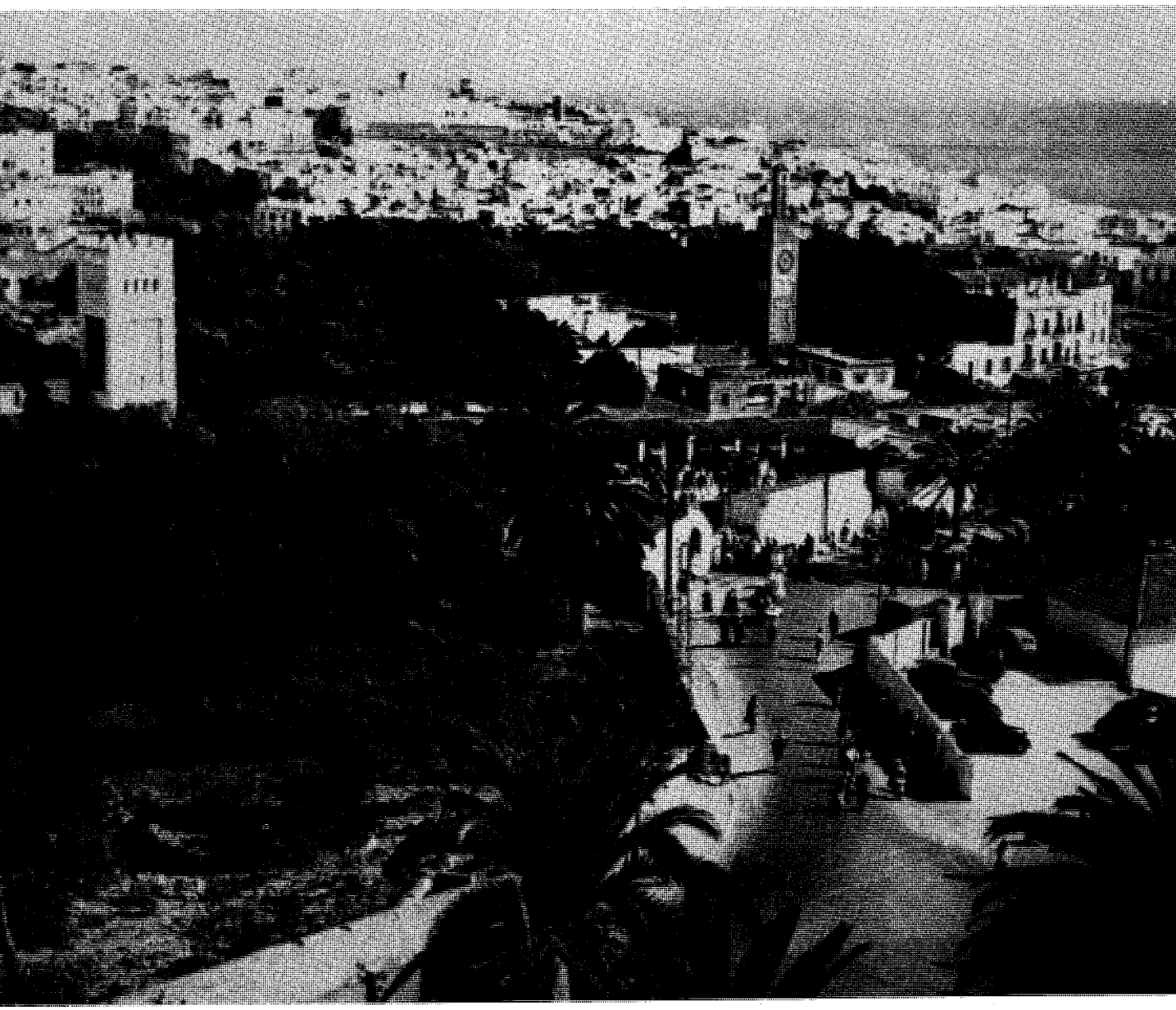

المدينة العربية

وسروج ، ومتمتع فروج ، ومطعم قديد ومروج . ديارها نبيهة ، وأحوالها ــ بأحوال جارتها (الاندلس) شبيهة .

لكن رملها يحشو العين بالذرور عند المرور ، (**ويدخل الدور ، ويفسد القدور**) ورياحها لا تسكن الا فى الندور ، وظلمة جوها متسببة عما وراءها من مغرب الشموس والبدور . وعين برقانها ــ أعذب عيونها ــ مشهور بتوليد الهوج ، قران عند الناس غير ذى عوج ، ويذكر أن سليمان اختصها بسجن مردة الجن ، فيعثر بها على (120 : أ) أوان ملئت ريحا ، تثير تبريحا (60) ، ويسندون ــ لذلك ــ افكا صريحا .

4 ــ « قصر كتامة » (61)

قلت : فقصر كتامة ؟

قال : مغرد عندليب (62) ، وعنصر بر وحليب ، ومرعى سائمة ، ومسرح بهيمة فى الجميم هائمة ، ومسقط مزنة عادية وديمة دائمة . وبه التفاح النفاح ، ترتاح الى شميمه الارواح ، والفوائد قد ثقلت بها الادواح ، يقذف به السماء والصباح ، ويتفنن فيه الحرام والمباح ، والسمك كما جردت الصفاح اذا استبحر الكفاح . وطريقه مسلك ــ القافلة ، وببابه السوق الحافلة . ينسل اليها من غمارة قرود وفهود (63)

---

60) تبريحا : شدة وهلاكا .

61) قصر كتامة : اراد به « القصر الكبير » احد مدن الشمال بالمغرب ، على بعد 25 كم من مدينة العرائش ، كما يبعد عن ساحل المحيط الاطلنطى بنحو 35 كم .
راجع : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 15 ص 360 .

62) الجميم : يقال ارض جميم اى ملساء .

63) الوان مختلفة من افراد قبيلة غمارة

وأمة صالح وهود ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (64). الا أنه قور (65) قد تهدم ، ودار الندوة لام ملدم (66) ، ومنتزى لهائج المرار وثائر الدم . جثم الهواء الخبيث فى بطيحته وربض ، وانبسط وما انقبض ، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم ، دربة بمص المحاجم . وأما وحله فلا يعبر ولا يسبر ، وان اسهبت العبارة فالامر أكبر .

5 ـ « أصيـــــلا » (67)

قلـت : فـأصيـــــلا ؟

قال : كثيرة المرافق ، رافعة فى الخصب اللواء الخافق ، (120 : ب) العصير الاثير ، والحوت الكثير ، والادام الذى يرمى به مـن حكم عليه بالتعزيز (68) ، والسفن المترددة فيها الملف (69) والابازير . الا أن حصنها من المنعة برى ، وساكنها بربرى ، وجارها ـ من غمارة ـ جـــــرى .

---

64) اقتباسا من قوله تعالى : « ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الاخرة ، ذلك يـوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » سورة هود ، آية : 103 .

65) قـــور : بئر .

66) أم ملدم : كنية الحمـــى .

67) اصيلا : هى « Arcila » مدينة صغيرة على ساحل المحيط الاطلنطى ، ينسب اليها الاديب المحدث أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلـــى ، تراس الكتابة بقرطبة على عهد المستنصر .
راجع : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ج 15 ص 212 .

68) كناية عن وفرة الزاد بالبلد .

69) الملف : لفظ شامل للغطاء والكساء .

ســـــــلا

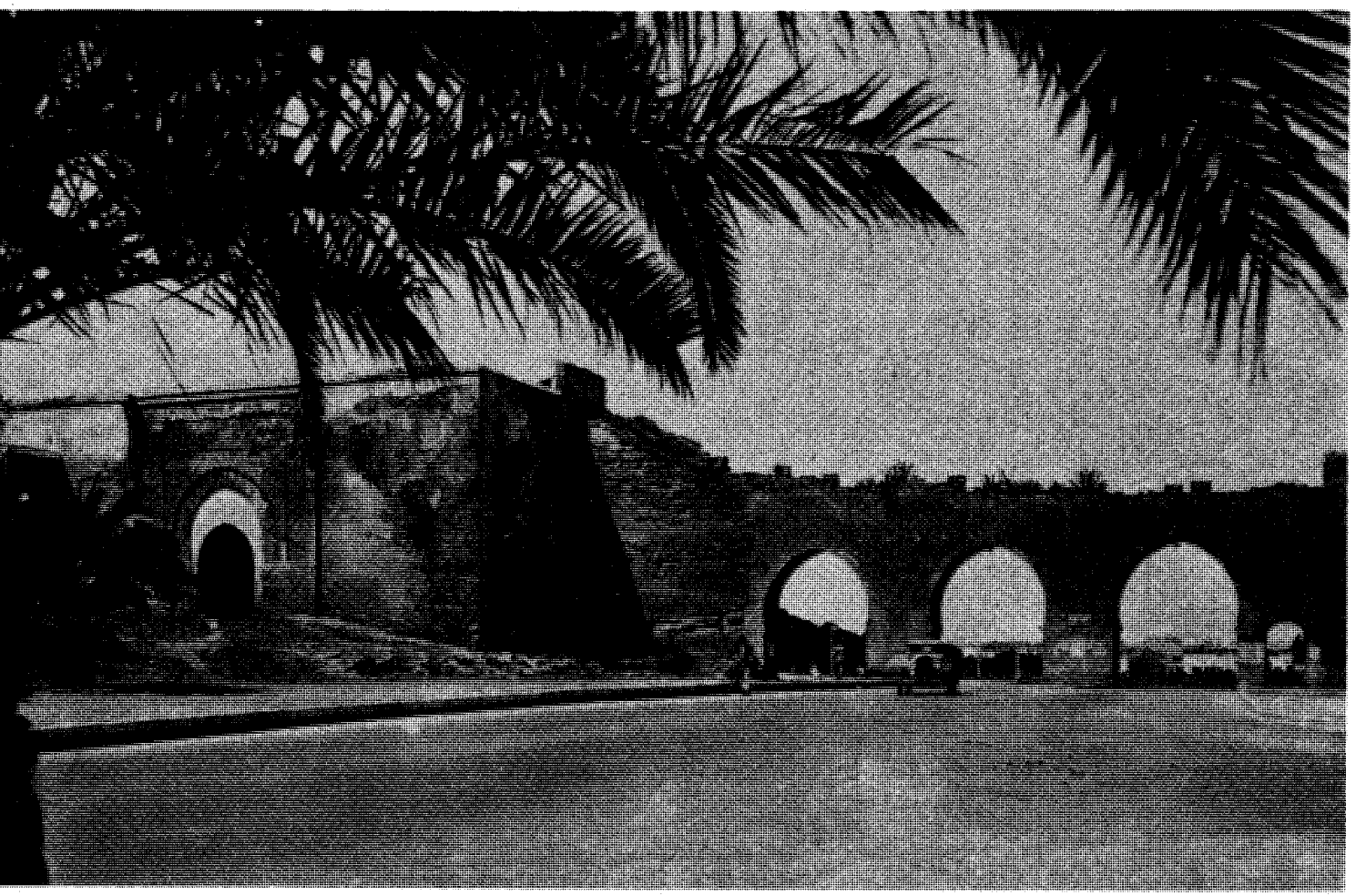

الاسوار القديمة الاثرية
(مدخـــل المدينـــة الشمالي)

6 ــ « ســـــــلا » (70)

قلـــت : فمدينـــة ســـــلا ؟

قال العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسدرة المفصلة . ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة . معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادى المتعدد الاجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والعصير العظيم الشأن ، والاسوق الممتازة حتى برقيق الحبشان . اكتنفها المسرح ، والخصب الذى لا يبرح ، والبحر الذى يأسو ويجرح ، وشقها الوادى يتمم محاسنها ويشرح .

وقابلها **الرباط** (71) ، الذى ظهر به ــ من المنصور ــ الاغتباط ، حيث القصبة والساباط (72) ، ووقع منه بنظرة الاعتباط ، فاتسع الخرق

70) هى Salé مدينة موازية لوادى ابى الرقراق الذى يفصلها عن مدينة الرباط العاصمة ، يعتقد بأنها تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ويـــرى بعض المؤرخين انها مدينة رومانية قديمة ، نالت عناية بنى مرين فسوروها ، وانشأوا بها كثيرا من المرافق العامة ، وتعتبر عمارتها نموذجا للفن المغربى الرائع فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولسلا شهرة صناعية تجاريـــة فى الجلد والاوانى النحاسية والحديدية ونسج الزرابى والطـــرز وصناعـــة الحصر ، وهى المدينة التى بقى فيها ابن الخطيب منفيا لمدة ثلاث ســـنـــوات تقريبا (760 ــ 763 هـ / 1358 ــ 1361 م) حيث ألف بها كتابه هذا ضمن ضمن كتب أخرى ، حينما جاء الى المغرب مع سلطان غرناطـــة المخلـــوع « الغنى بالله محمد الخامس ابن الاحمر » .

راجع : المعجم للحموى ج 10 ص 231 .

71) الرباط : « Rabat » هى عاصمة المغرب الادارية، وقد اسسها الخليفة المنصور ابو يوسف بن عبد المؤمن ، (554 هـ 595 هـ) = (1159 ــ 1198 م) اشهر ملوك الموحدين ، وسماها « رباط الفتح » ، وهى مدينة الابواب العظيمة ، اقامها الموحدون ، فقد كانت رباطهم العسكرى ، كما ان بها صومعة حسان الشامخة البتراء ، تشرف على المدينة وعلى بقايا اطلال المسجد ، وهـــذه الصومعة من طراز الكتبية بمراكش والخيرالدا بأشبيلية .

راجع : « السلاوى » فى الاستقصا ج 1 ص 16 ــ 181 .

72) الساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

الـربـــــاط

المدينة كما تبدو من وادى ابى الرقراق
وحيث تطـــل عليه قصبـــة الاودايـــة

« الصومعة وبعض ا
— الـربـاط .

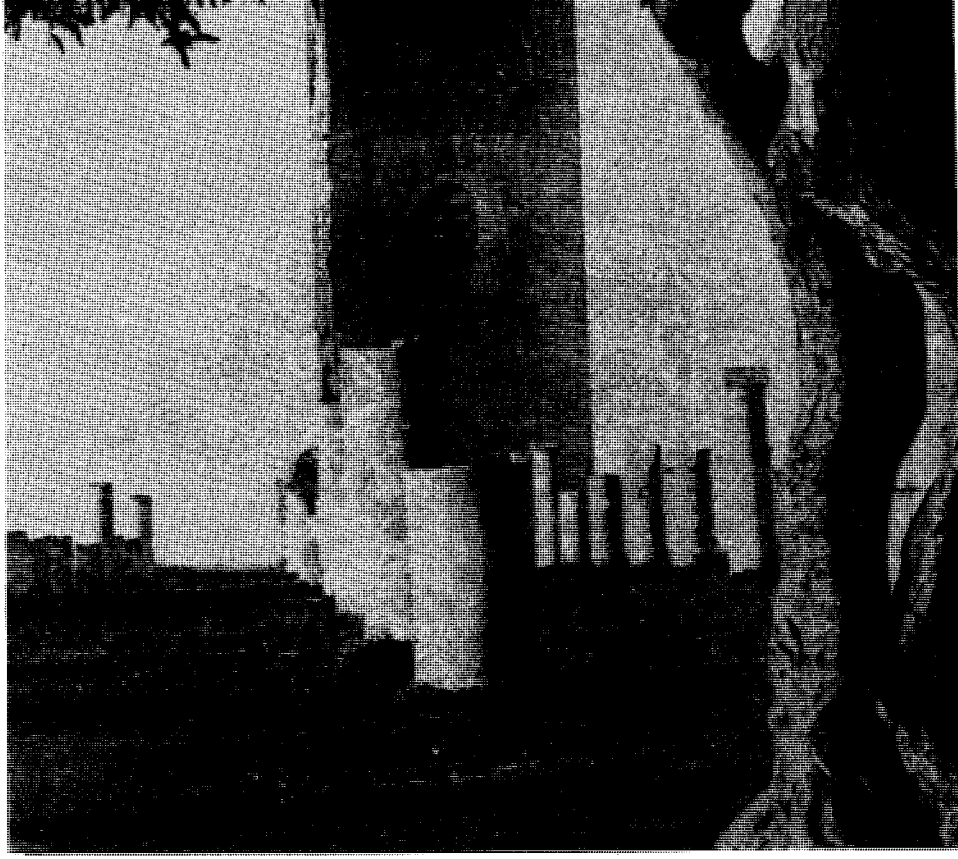

قـصـبـة الاودا

وعظم الاشتطاط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط (73) . الى **شامة (74)** مرعى الذمم ، ونتيجة (121 : أ) الهم ، (**ومشمخ الانوف ذوات الشمم**) (75) وعنوان بر الديم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والاوقاف المرتبة ، والقباب كالازهار ، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل فى الاشتهار .

وهى ـ على الجملة من غيرها ـ أوفق ، ومغارمها ـ لاحترام الملوك الكرام ـ أرفق ، ومقبرتها المنضدة عجب فى الانتظام ، معدودة فى المدافن العظام ، وتتأتى بها ـ للعبادة ـ الخلوة ، وتوجد عندها ـ للهموم ـ السلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وطلت حثيث السير فيمن فلا الفلا فلا خاطرى لما نأى وانجلى انجلى
ولا نسخت ـ كربى بقلبى ـ سلوة فلما سرى فيه نسيم سلا سلا

وكفى بالشابل رزقا طريا ، وسمكا بالتفضيل حريا ، يبرز عدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم حتى المجاشر (76) النائية والخيم الا أن ماءها لا يروى به بارد (77) ، لا كريم ولا بارد ، وأليفها شارد ، والخزين بها فاسد ، وبعوضها مستأسد ، راضع غير مفطوم ، واسم للخد والخرطوم ، بذيالك الخرطوم ، خالع للعذار غير مخطوم ، تصغى

73) يرمى بهذا الى ما روى عن المنصور مؤسس الرباط عند ما توفى ، من أنه قال: ندمت على ثلاثة اشياء : بناء مدينة الرباط ، واسكان عرب بنى هلال فى المغرب ، واطلاق اسرى النصارى ، وهم الذين كان قد أسرهم فى موقعة « الارك » الشهيرة (ربيع الاول 592 هـ = 1195 م) ، وقد تحققت نبوءة المنصور فى العاقبة السيئة لهذه الامور الثلاثة ، فقد اتخذ الفرنسيون مدينة الرباط قاعدة بعد احتلالهم المغرب فيما بعد ، واثار عرب بنى هلال القلاقل والفتن فى المغرب ، واخذ النصارى بثارهم فى موقعة « العقاب » حيث هزموا المسلمين فيها شر هزيمة (15 صفر 609 هـ = 18 يوليو 1212 م).

74) فى نسختى (ط ، س) « شالة » وهو الاوفق .

75) زيادة فى (س ، ط) .

76) المجاشر : يعنى القرى والضياع ، ويقال لها فى المغرب الآن « المداشر » .

77) فى نسخة (س) « وارد » وهو أصوب .

ـ لرنته ـ الآذان ، ويفتك بوكز السنان ، كالقوس تصمى (121 : ب) الرمايا وهى مرنان (78) ، وديارها ـ فى الماء ـ دار عثمان (79) ، وطواحنها غالية الاثمان ، وكثبانها العفر تلوث بيض الثياب ، طـى العيا ب، وعابر واديها ـ الى مأرب أكيد ـ فى تنكيد . الى غلبة الامساك، وخوض النساك (80) ، وكثرة أرباب الخطط ، (81) والاغياء فى الشطط ، تذود ـ عن جناته للاسد ـ جنان ، (82) فلا يلتذ ـ بقطف العنقود منهـا ـ بنان ، وفى أهلها خفة ، وميزانها لا تعتدل منه كفة .

7 ـ « أنفـا »(83)

قلت : فأنفـــــا ؟

قال : جون (84) الحط والاقلاع ، ومجلب السلاع ، تهدى اليهـا السفن شارعة ، وتبتدرها مسارعة . تصارف برها الذهبى بالذهـب الابريز ، وتراوح برها وتغاديه بالتبريز .

---

78) قوس مرنان : صلبة مرنة .

79) يرمى بذلك الى انه لا ماء فيها ، اذ دار سيدنا عثمان بن عفان الخليفة لم يكن بها ماء اثناء حصـــاره .

80) يغلب على اهل البلد البخل ، وعلى نساكها خوضهم فى اعراض الناس .

81) الخطط : ارباب الوظائف .

82) جنان : حراس كالجن فى الذب عن البساتين .

83) أنفا : الدار البيضاء« Casablanca »العاصمة التجارية للمغرب الاقصى علـى ساحل المحيط الاطلنطى ، تشتهر بالانتاج الزراعى والصناعى . وقد وقـع عليها اعتداء من الاساطيل البرتغالية عام 1465 م حيث دمرتها تماما ، بسبب منافستها التجارية لثغر قادس ، ولكن أعيد بناؤها عام 1515 م ، وقد قست عليها الطبيعة من البحر فاجتاحت معظمها الامواج عام 1755 م ، ولم تعـد مدينة تتطور وتزدهر الا فى عام 1907 م ، وهى اليوم كبرى مدن المغـرب مساحة ، واعظمها تعدادا للسكان ، ذات مرسى ضخم تبلغ أرصفته مساحة 6 كيلومترات . والسكان حاليا يتجاوزون المليون والنصف نسمة تقريبا .

84) الجون : أحد أنواع القطا ، أسود البطن والجناح ، والجونة : الشمس عنـد مغيبها والسياق يحتمل أحد المعنيين .

الـدار الـبـيـضـاء

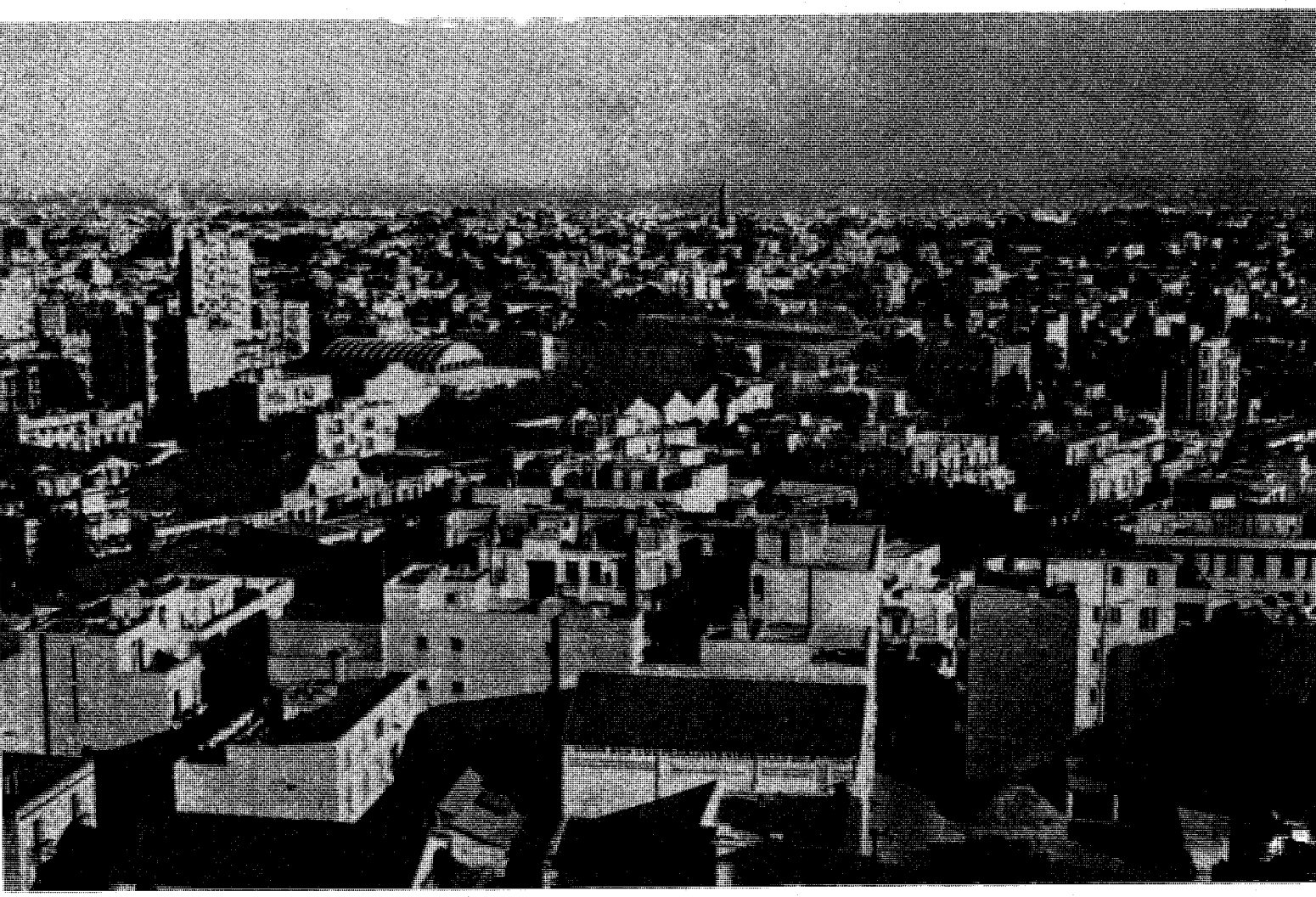

« منظـر حديـث للمدينـة »

يكثـر الطيـر حيث ينتشر الحـ ـب وتغشـى منـازل الكرمـاء

وخارجها يفضل كل خارج ، وقانصها يجمع بين طائر ودارج ، وفواكهها طيبة ، وأمطار عصيرها صيبة ، وكيلها وافر ، وسعرها ـ عن وجه الرخاء ـ سافر ، وميرتها لا ينقطع لها خف ولا حافر . لكن ماءها وهواءها عديما الصحة ، والعرب عليها فى الفتن ملحة ، والامراض بهـا تعيث وتعبث ، والخزين بها لا يلبث .

8 ـ « أزمـــــور » (85)

قلـت : فـأزمـــــور ؟

قال : جار واد وريف (86) ، وعروس ربيع وخريف ، وذو وضع شريف . أطلت على واديه المنازه (122 : أ) والمراقب ، كأنها النجوم الثواقب ، وجلت من خصبه المناقب (87) ، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب (88) . بلد يخزن الاقوات ، ويملأ اللهوات . باطنه الخير ، وادامه اللحم والطير . وساكنه رفيه ، ولباسه يتحد فيه ، ومسكنه نبيه ، وحوته الشابل ليس له شبيه . لكن أهله ـ أنما حرثهم وحصادهم ـ اقتصادهم ، فلا يعرفون ارضاخا (89) ، ولا وردا نضاخا ،

---

85) أزمور : هـى « Azammur » مدينة ساحلية على المحيط الاطلنطى بالمغـرب. موقعها على الجانب الايسر لمصب وادى أم الربيع ، وعلى مسافة 80 كم من الدار البيضاء جنوبا ، وهى مدينة صغيرة مشيدة بجانب رأس صخـرى عال ، كانت عاصمة اقليم دكالة القديمة .
راجع : J. Leon Africano, Op. Cit. P. 83
والتعريف بابن خلدون ص 44 حاشية 4 .

86) وريف : ممتد واسع .

87) المناقب : الطريق فى الجبل .

88) المصاقب : المجاور .

89) ارضاخا : تساهـلا .

يترامون على حبة الخردل (90) بالجندل (91) ، ويتضاربون على الاثمان الزيـــوف (92) بالسيوف . بربرى لسانهم ، كثير حسانهم ، قليـــل احسانهم ، يكثر بينهم ــ بالعرض ــ (93) الافتخار ، ويعدم ــ ببلدهم ــ الماء والملح والفخـــــار .

9 ــ « تيـــــط » (94)

قلـــت : فتيـــــط ؟

قال : معدن تقصير ، وبلـــد بين بحرى ماء وعصير ، وربـــاط للاولياء بـــه (**ســـرور**)(95) ، واغتباط ، ومسجدها تضيق عنه المدائن منارا عاليا ، وبقلادة الاحكام حاليا . الا أن خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر ، ولا يشوق بحسن سافر ، ومؤمنه يشقى بصداع كافر ،

---

90) الخردل : نبات برى ينبت فى الحقول مع الزرع ، أو على حافة الطرق ، حبـــه أسود وصغير جدا ، يستعمل فى التوابل ، وله فوائد طبية ، كما يستخرج منه الزيـــت .

91) الجندل : الصخر العظيم .

92) الاثمان الزيوف : النقود الزائفة .

93) العرض : ضد الجوهر .

94) تيط : هى « Tit » تقع جنوبى مدينة الجديدة ، وهى ضمن اقليم دكالة ، علـــى ساحل المحيط الاطلنطى .

95) زيادة فى (س ، ط) .

وحماه عدو كل خف وحافر ، فلولا ساكنه لم ينبس يوم فخر ، ولم ينم الا الى صخـــر (96) .

10 ــ « آسفـــــى » (97)

قلت : فربـــاط آسفـــى ؟

قال : لطف خفى ، وجناب حفى ، ووعد وفى ، ودين ظاهره مالكى ، وباطنه حنفى . الدماثة والجمال ، والصبر (122 : ب) والاحتمال ، والزهد والمال ، والسذاجة والجمال (98) . قليلة الاحزان ، صابرة علـــى الاختزان ، وافية المكيال والميزان ، رافعة اللواء ، بصحة الهواء . بلد

---

96) كناية عن انها بلدة شبه منقطعة عن سواها ، لوعورة الطرق اليها ، كما أسلف فى وصفها ، وهو يورى بصخر المبكى عليه من أخته الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية ، عاش صخر هذا فيما بين القرنين السادس والسابـــع الميلادى ، وخرج فى احدى الغزوات ، فقاتل حتى أصابه جرح فمات ، فحزنت عليه أخته أكثر من حزنها على أخيه معاوية ، الذى توفى قبله ، لما للاول من أياد كريمة عليها . ولها ديوان خاص فى رثاء صخر ، فمن قولها فيه ترثيه :

وان صخـــرا لتاتـــم الهـــداة بـــه ... كأنـــه علـــم علـــى رأسه نـــار
جلـــد جميـــل المحيـــا كامـــل ورع ... وللحروب غـــداة الروع مسعار
حمـــال الويـــة ، هبـــاط أوديـــــة ... شهاد أنديـــة ، للجيش جـــرار

راجع : الموجز فى الادب العربى وتاريخه ، نشر دار المعارف ج 1 ص 204 ،

97) رباط آسفى : هى « Safi » مدينة على ساحل المحيط الاطلنطى بالمغـــرب ، وهى أصلا مؤسسة برتغالية ، كادت تندثر عندما غادرها مؤسسوها ، ولم يبق من آثارهم فيها غير حصن عظيم ، وثكنة ، وقصر يسمى « دار البحر » ، وترتكز ثروة آسفى على صيد الاسماك، فهى من أهم مراسى الصيد للسردين فى العالم ، ومن مرسى آسفى يصدر الفوسفات المستخرج من مناجـــم « كشكاط » ، وتبعد المدينة عن الدار البيضاء بمسافة 252 كم .

98) فى نسخة أخرى « والجلال » وهو أنسب .

موصوف ، برفيع ثياب الصوف ، وبه تربة الشيخ أبى محمد صالح (99) . وهو خاتمة المراحل ، لمسورات ذلك الساحل . لكن ماءه قليل ، وعزيزه ــ لعادية من يواليه من الاعراب ــ ذليــل (100) .

11 ــ « مــراكـــش » (101)

قلت : فمدينـــة مـــراكـــش ؟

قال : فتنفس الصعداء ، وأسمع البعداء ، وقال : درج الحلى ، وبرج النيـــر الجلى ، وتربة الولى ، وحضرة الملك الاولى ، وصرح الناصر الولـــى . ذات المقاصير (102) والقصور ، وغابـــة الاسد الهصـــور ،

---

99) هو أحد رواد الطرق الصوفية ، عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كـــان يرأس ــ بهذه البلاد ــ جمعية لتيسير الحج ، لحراسة القوافل الذاهبة الى الاراضى المقدســـة .

100) كناية عن كثرة السطو على الموسرين بالمدينة من قبل الاعراب المجاورين لهـــا .

101) هـــى بالاسبانية« Marraquex » تبعد عن الرباط بمسافة 326 كم ، عاصمة الجنوب بالمغرب ، أسسها يوسف بن تاشفين أعظم ملوك المرابطين عـــام 454 هـ = 1062 م ، كما بنى بها مسجده المعروف باسم « جامع يوسف » . استمرت عاصمة للموحدين كما كانت عاصمة للمرابطين ، ولكن بنى مريـــن تحولوا عنها الى فاس ، ففقدت مراكش من يومها مركزها السياسى ، وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، كما أن بها من آثـــار السعديين مقابرهم العظيمة . وتشتهر المدينة بصناعة الجلد والصباغـــة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزرابى . وخارجها مزارع الـــزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ، تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلـــوج شتاء . وللعلويين بها جنان أكدال التى أنشأها عبد الرحمن بن هشام العلوى، وبها ضريح القاضى عياض ، وأبو العباس السبتى ، وأبو القاسم السهيلى، ومحمد بن سليمان الجزولى .
راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ص 1251 . وكذا : J. Leon. Op. Cit. P. 67-68

102) المقاصير : ج مقصورة ، وهى الدار الواسعة المحصنة .

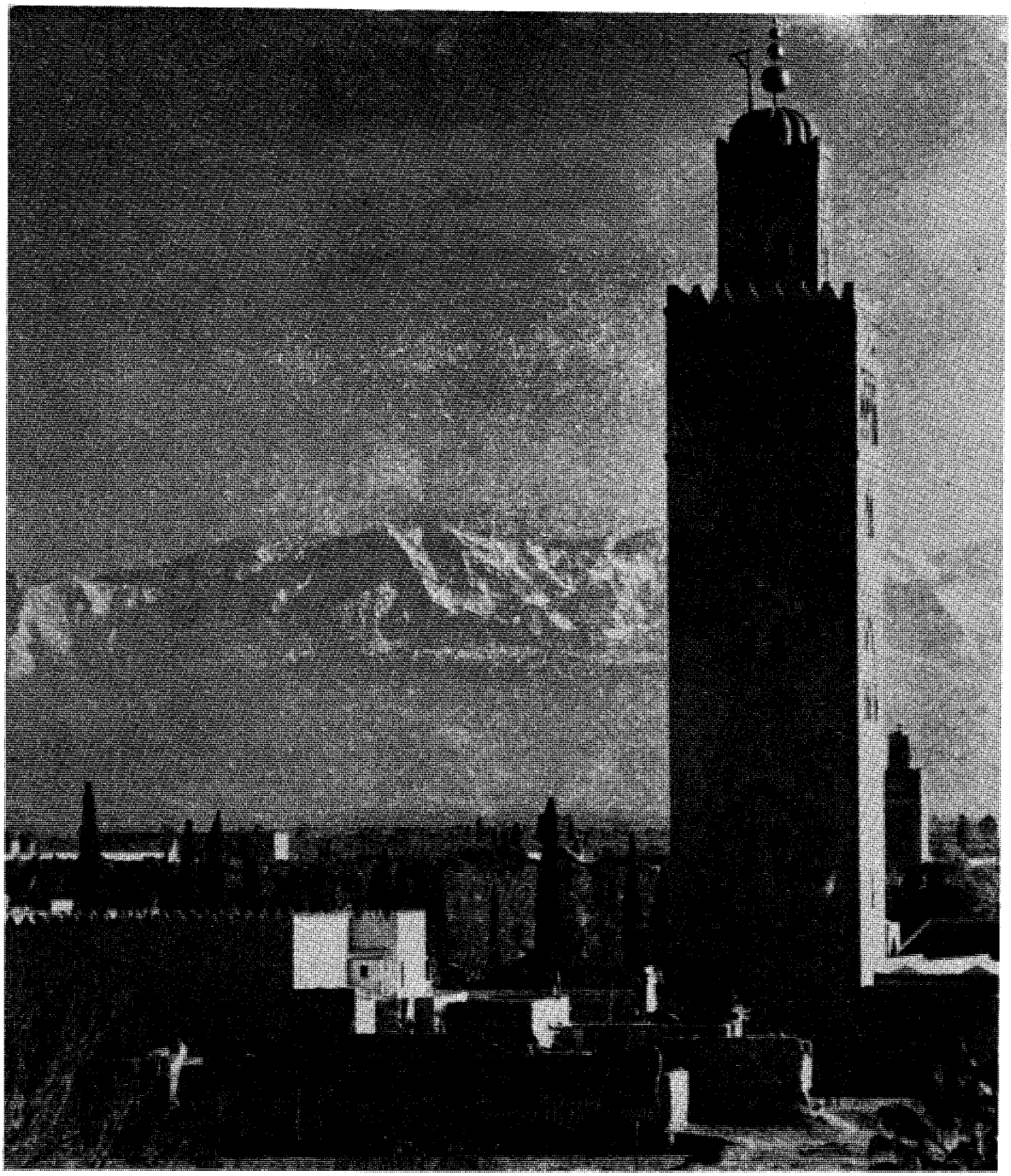

صومعة مسجد الكتبـــية ــ واحدة من ثلاث ذات هندسة واحدة :
الخيرالدا باشبـــيلية ، والكتبـــية بمراكش ، وحسان بالربـــاط ·

وسدة(103) الناصر والمنصور . بعدت عن المركز دارتها ، وجرت ــ على قطب السياسة ــ ادارتها ، وسحرت ــ العيون ــ شارتها ، وتعبد الاباءة اشارتها ، وخاضت ــ البحر الخضم ــ نذارتها وبشارتها . اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الاسوار وأبراج الحديد . وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسألت المذانب كصفاح القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون ، أدواح الشجر بها وغابات الزيتون .

(123 : أ) فما شئت من انفساح السكك ، وسبوغ الشكك(104)، وانحلال التكك ، وامتداد الباع فى ميدان الانطباع ، وتجديد فنون المجون بالمد والاشباع . زيتها الزمن يعصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها (لا تحصى) ولا تحصر . فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا ــ غدرانها الحائرة ــ الحلق السرد (105) ، قلت : أنجز ــ للمتقين من الجنة ــ الوعد ، وساعد السعد ، وما قلت الا بالذى علمت سعد (106) . ومنارها العلم فى الفلاة، ومنزلته ــ فى المآذن ــ منزلة والى الولاة . الا أن هواءها محكم فى الجباه والجنوب (**يحمى عليها بكير الجنوب**) (107) وحمياها كلفة بالجسوم ، طالبة ديونها بالرسوم ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة مضاجعة الحبيب ، وخرابها موحش هائل ، وبعد الاقطار ــ عن كثير من الاوطار ــ بها ــ حائل ، وعدوها ينتهب ــ فى الفتن ــ أقواتها ، وجرذان

---

103) سدة : السدة : المنصب الرفيع .
104) الشكك : ج شكة ، وهى اللباس يقى لابسه ضربة السلاح .
105) السرد : المنتظم المتتابع .
106) مثل عربى يضرب فى اسناد الاخبار الى مصادرها ، وهو الشطر الاخير من قول الشاعر :

ويعذلنى أبناء سعد فيهم ... وما قلت الا بالذى علمت سعد

107) زيادة فى (س) .

المقابر تأكل أمواتها . وكانت أولى المنازل بالاغياء ، لو أنها ـ اليوم ـ معدودة فى الاحيـــاء (108) .

12 ـ « أغمـــــات » (109)

قلت : فأغمـــــات ؟

قال : بلدة ـ لحسنها ـ الاشتهار ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وشمامة تتضوع منها الازهار ، متعددة البساتين ، (123 : ب) طاميـة بحار الزياتين ، كثيرة الفواكه والعنب والتين . خارجها فسيح ، والمذانب فيه تسيح ، وهواؤها صحيح ، وقبولها للغريب شحيح ، وماؤها نمير ، وماء وردها ممد للبلاد ومنير . الا أن أهلها يوصفون بنـوك (110) . وذهول ، بين شبان وكهول ، وخرابها يهول ، وعدوها تضيق ـ لكثرته ـ

---

108) يرمى بهذا الى أن مراكش قد فقدت مركزها السياسى فى العصر الذى يعيشه ابن الخطيب ، وهو عصر المرينيين ، الذين اتخذوا فاس عاصمة لهـــم ، فتحولوا بذلك عن مراكش ، التى ظلت العاصمة فى عهد كل من المرابطـين والموحدين . هذا ، والاغياء هو : بلوغ الغاية من الشأن .

109) أغمـــات« Agmat »موقعها قرب مدينة مراكش ، وفى هذه الفترة التى يؤرخ لها ابن الخطيب كانت أغمات عبارة عن مدينتين مواجهتين لبعضهما وهما : أغمات عيلان ، وأغمات وريكة ، وكان بينهما خصام مستحكم ، فرق بينهما حتى فى دور العبادة ، وقد انتهى هذا الخلاف فيما بعد ، واندثرت أغمـــات وريكة وبقيت الاخرى ، وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى ، وتشتهـر المدينة بوفرة مياهها وكثرة بساتينها ، وبها قبر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية زمن الطوائف ، الذى قبض عليه ملك المغرب يوسف بن تاشفين بعد تغلبه عليه عام 480 هـ (1087 م) .
راجع : Discripcion de Africa P. 73. J. Leon Affricano,
وكذا : مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، لصفى الدين البغدادى ج 1 ص 98 .

110) نوك : حمـــق .

السهول ، وأموالها ــ لعدم المنعة ــ فى غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طعــم أمـــان .

13 ــ « مكـنـاسـة » (111)

قلت : فمدينـة مكناسـة ؟

قال : مدينة أصيلة ، وشعب المحاسن وفصيلة ، فضلها الله ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها (112) ، فجانبها مريع (113) وخيرهـا سريع ، ووضعها له ــ فى فقه الفضائل ــ تفريع ، عدل فيها الزمان ، وانسدل الامان ، وفاقت ــ الفواكه ــ فواكهها ، ولا سيما الرمان ، وحفظ ــ أقواتها ــ الاختـزان ، ولطفت فيها الاوانى والكيـزان ، واعتـدل ــ للجسوم ــ الوزان . ودنا ــ من الحضرة (114) ــ جوارها ، فكثر قصادها من الفضلاء وزوارها ، وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الابهة

---

111) مكناس او مكناسة : هى بالاسبانية Mequinez اتخذها المولى اسماعيـل عاصمة له (1673 ــ 1726 م) وطبعها بطابع عبقريته . تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كم ، وقد سميت باسم قبيلة مكناسة البربرية التـى اختطت المدينة اولا ، ويحيط بمكناس نطاق مثلث من أسوار وحصون يبلغ طولها 40 كم . من آثارها العتيقة باب منصور ، والاصطبلات القديمـة ، وبركة البساتين التى تبلغ مساحلتها 4 هكتارات مربعة ، وهى على غـرار بركة مراكش . وتعتبر مكناس اليوم خامس مدن المغرب سكانا ، اذ تتقدمها الدار البيضاء والرباط ومراكش وفاس . ويبلغ تعداد السكان حاليا حوالـى 230 الف نسمة ، وارتفاعها عن سطح البحر بنحو 522 مترا .
راجع : التعريف بابن خلدون ، ص 221 حاشية 3 ، و « الروض الهتون ، فى أخبار مكناسة الزيتون » لابن غازى العثمانى المكناسى (ط. القصر الملكى بالرباط 1966 م) بتحقيق عبد الوهاب بن منصور . وكذا مجلة « الثقافـة المغربية » ج 7 عدد 7 (1972) تحت عنوان (التخطيط المعمارى لمدينـة مكناس) للاستاذ محمد المنونى ، ص 21 ــ 56 .

112) اشارة الى قوله تعالى : « اخرج منها ماءها ومرعاها » النازعات : 31 .

113) مريـع : خصب .

114) يقصد بالحضرة المرينية : فاس العاصمة .

مـكـنـــاس

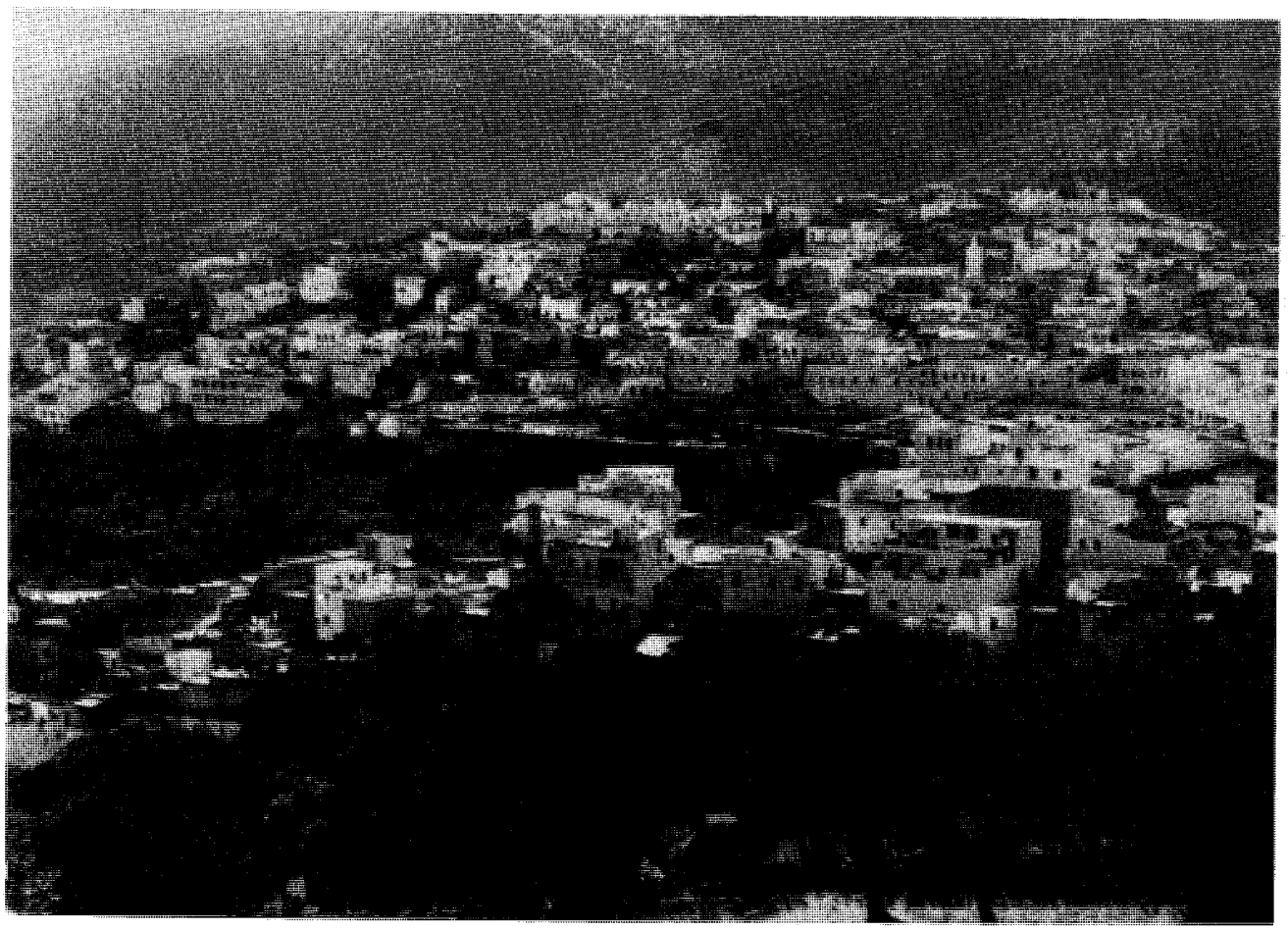

منظـــر عـــام امدينة مكنـــاس

مـكـنـــاس

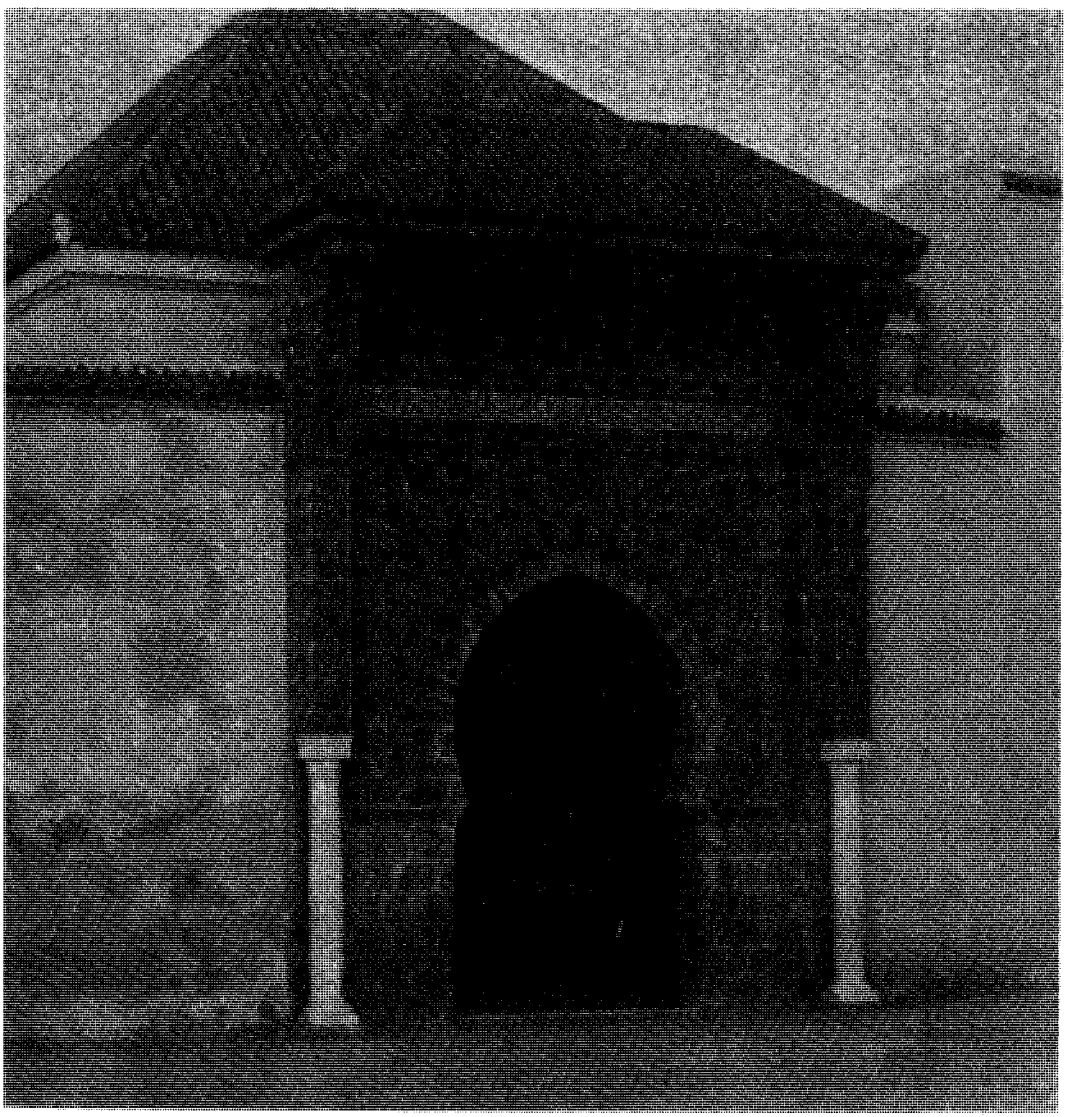

مدخل ضريـــح مولاى اسماعيل

مـكـنـــاس

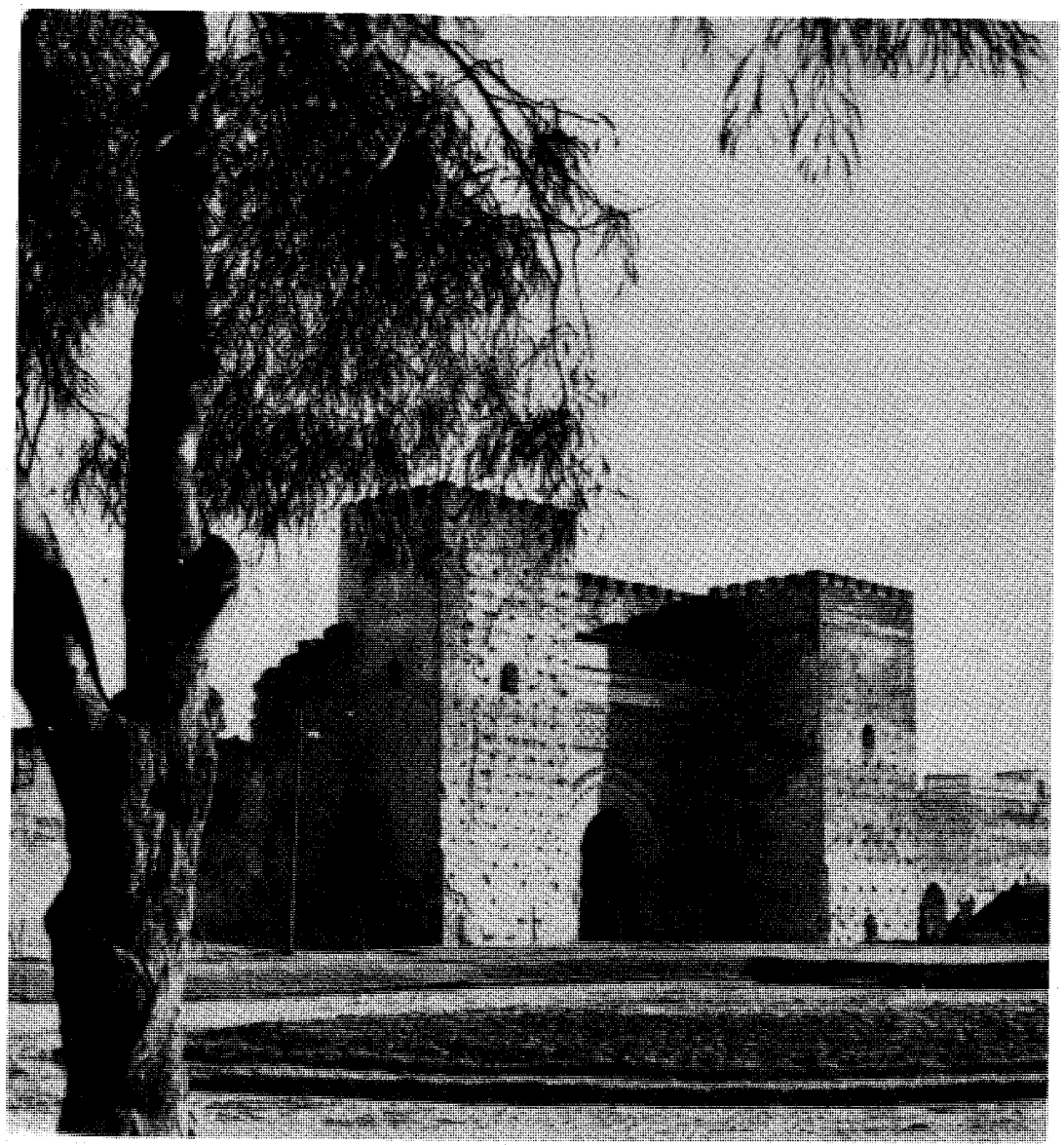

إبـــاب الـريـــح
احد المداخل الرئيسية لمدينة مكناس

مكنـــاس

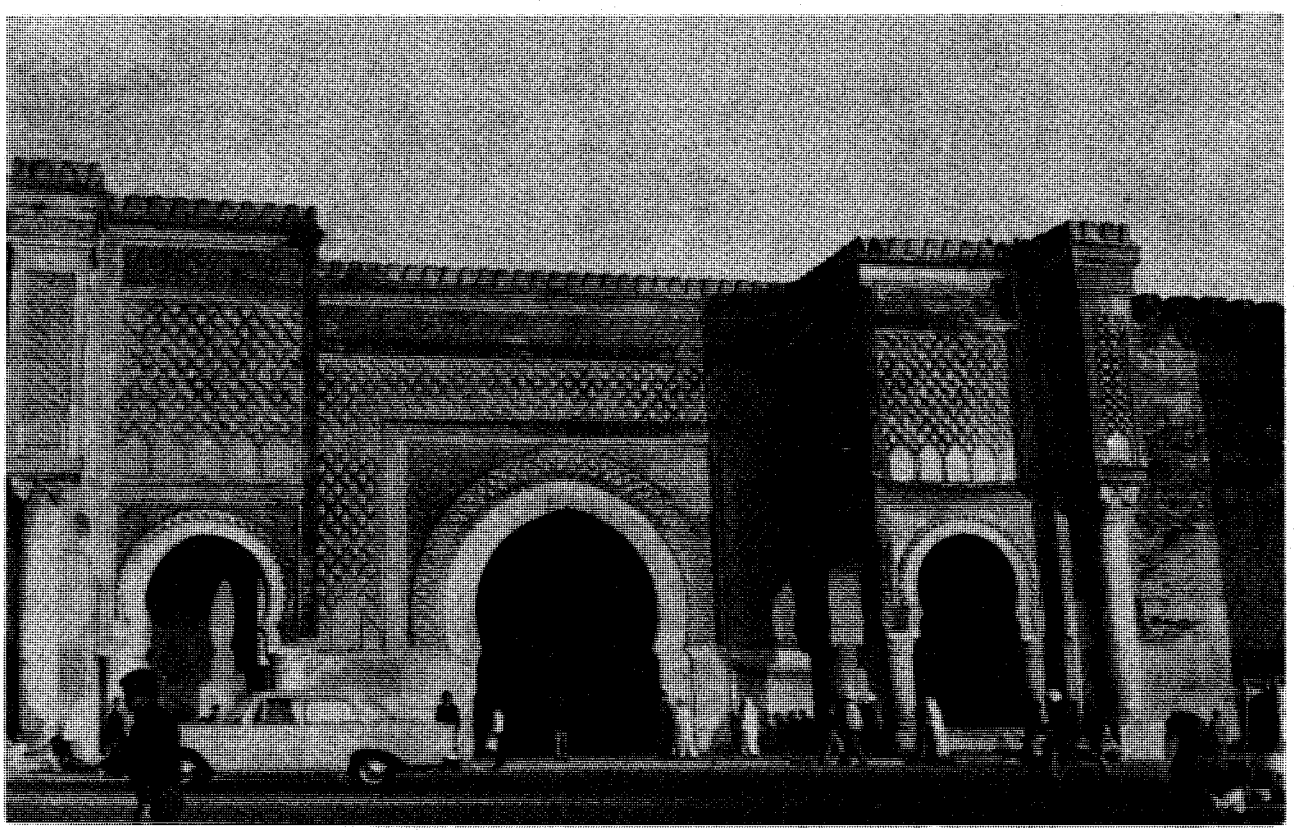

بـــاب مـنـصـــور
المدخل الرئيسى للمنشئات الملكية بالعاصمة الاسماعيلية

مـكـنـــاس

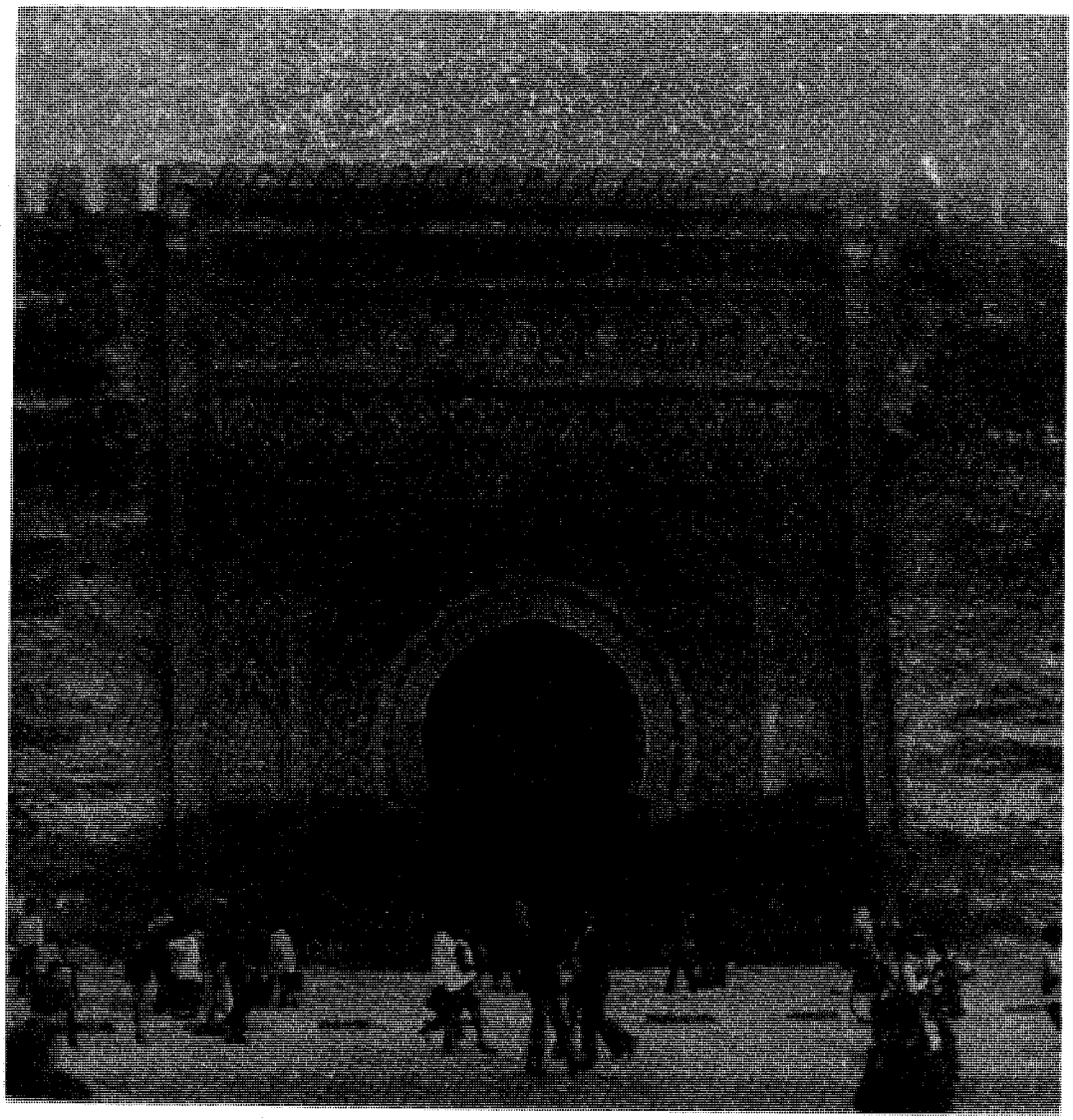

بـــاب مسجـــد الانـــوار

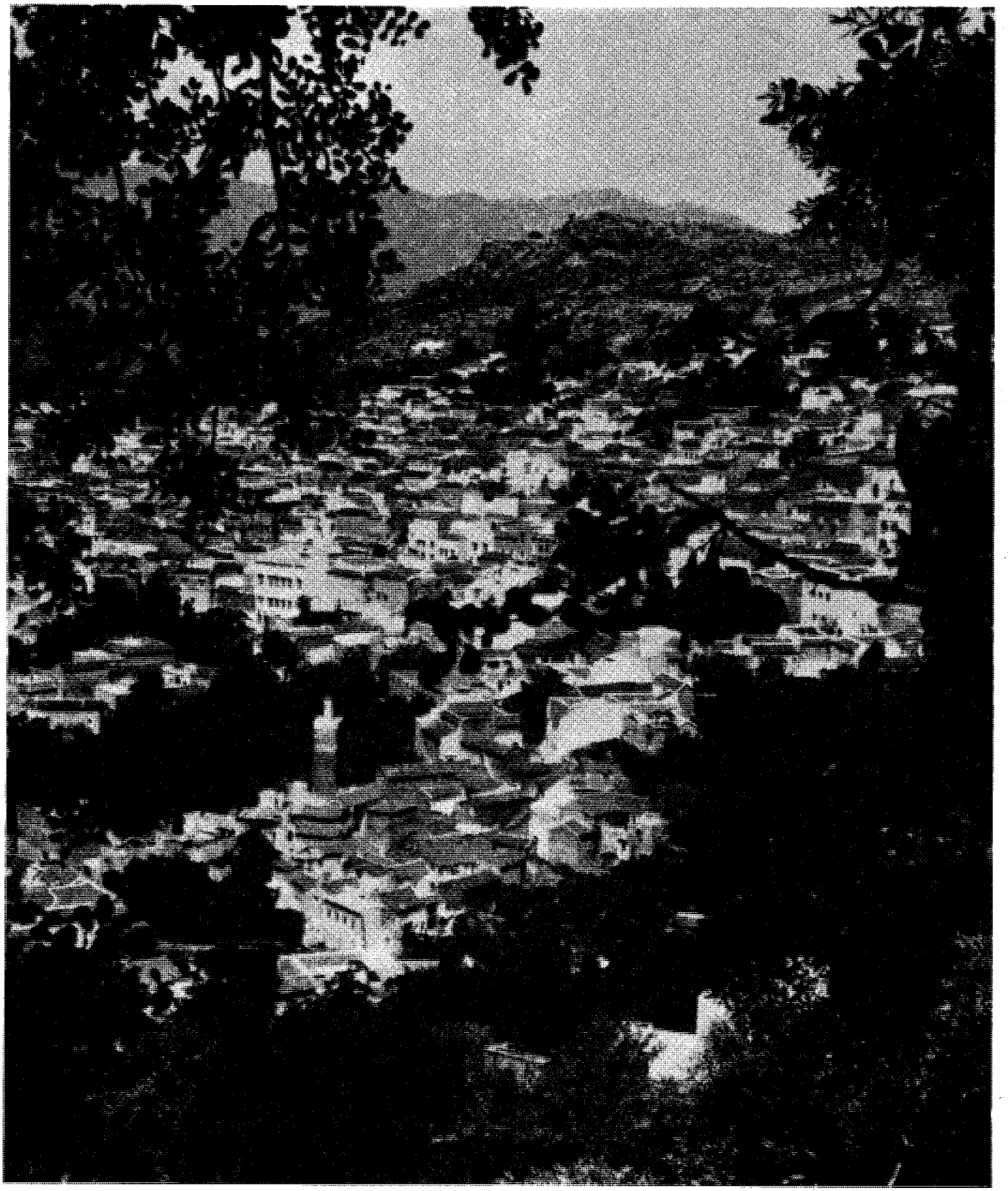

« . . حيـــث البنى التي نظر اليها عطارد فاستجفاها ، وخاف عليها الوجود ان يصيـــبها بعينـــه الحسود ، فسترها بالفـــور وأخفاهـــا . . . »

والبهاء ، والمقاصير والابهاء (115) . الا أن طينها ضحضاح (116) ، لذى الظرف فيه افتضاح ، وأزقتها لا يفارقها القذر ، وأسواقها يكثر بها الهـــذر ، (**وعقاربها لا تبقـــى ولا تذر**) (117) ، ومقبرتها لا يحتج (124 : أ) عن اهمالها ولا يعتـــذر .

14 ــ « فـــــاس » (118)

قلت : فمدينـــة فـــــاس ؟

فقـــــال :

رعـــى اللـــه قطرا ينبت الغنى وآفاقـــه ظل على الديـــن ممدود

نعم العرين ، لاسود بنى مرين ، ودار العبادة التـــى يشهد بهـــا

---

115) الابهاء ، ج بهو ، وهو : قاعة الاستقبال .

116) يعنى انتشار الاوحال فى طرقات المدينة .

117) زيادة فى نسختى س ، ط .

118) فاس : هى بالاسبانية Fez اسسها المولى ادريس الثانى عام 808 م ، فهى أقدم عواصم المغرب التاريخية ، وتبعد عن « الرباط » العاصمـــة الادارية حاليا بنحو مائتى كم ، وقد عاصر مؤسسها الامير الاموى الحكم بن هشام بالاندلس ، وهو الذى كان قد نفى وشرد معظم سكان ضاحية الربض فى قرطبة ، اثر الموقعة الشهيرة التى تغلب فيها على هؤلاء الثائرين (202 هـ = 817 م) فلجأ الربضيون الى فاس ، وفيها أحيوا الصناعات المختلفة ، وطبعوا المدينة بطابع الفن الاندلسى ، ولاسيما فى المعمار ، حتى سميـــت فاس لذلك « مدينة الاندلسيين » . أما « مدينة القرويين » فهى الضاحية التى عمرها سكان المغرب الادنى ، بعد أن وفدوا من القيروان ، وحيث بنى بهـــا « جامع القرويين » ، الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية الادريسية ، وهو الآن يمثل أقدم جامعات العالم ، ويؤمها الطلاب من كل حدب وصوب .

وتجدر الاشارة الى أن مركز فاس السياسى قد تضاءل فى عصر المرابطين ثم الموحدين ، الذين اتخذوا من مراكش عاصمة ، حتى تغلب بنو مريـــن فأعادوا الى فاس سابق مجدها ، باتخاذهم اياها العاصمة . أما « فـــاس الجديد » فهى التى بناها الامير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى عام

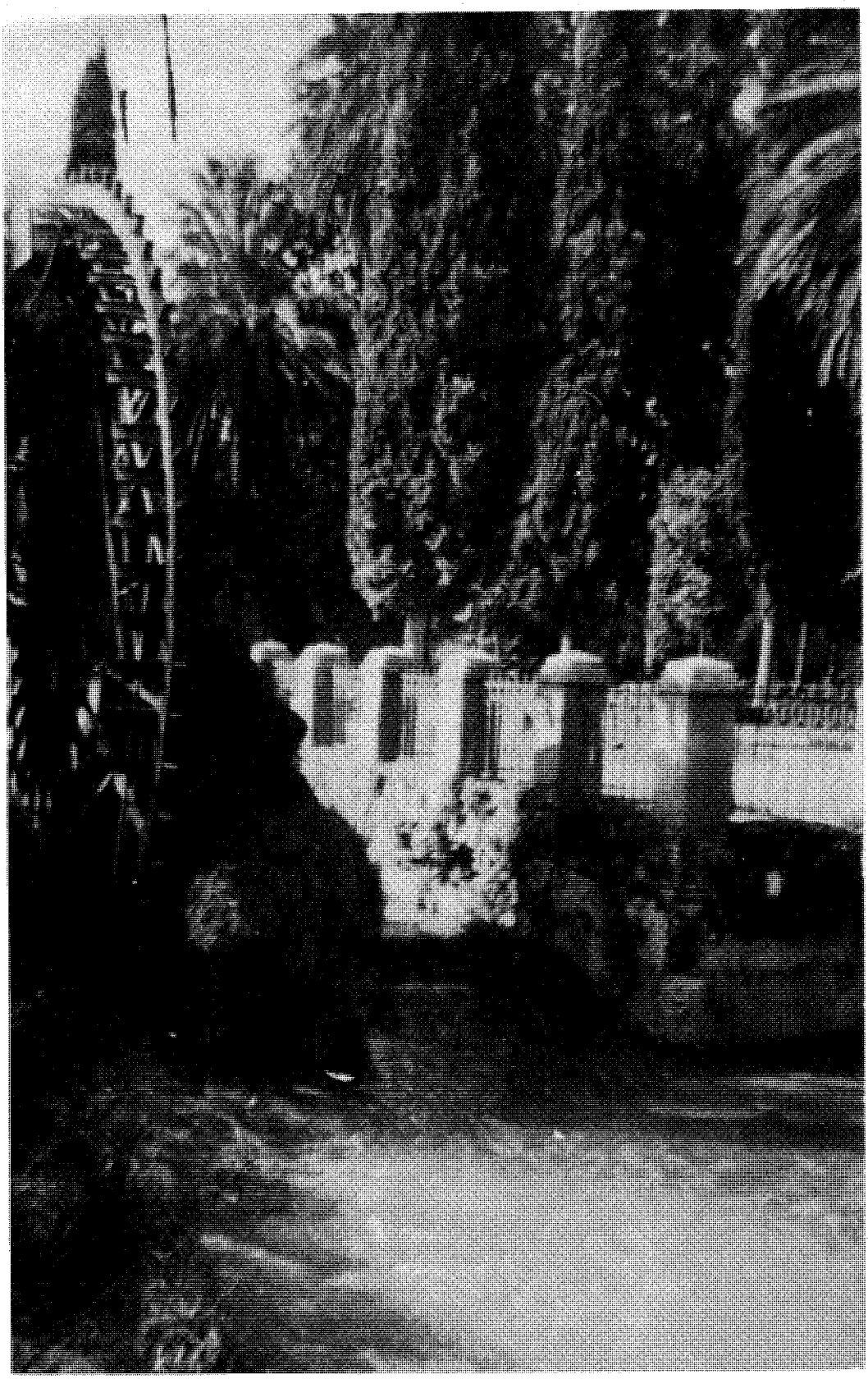

ناعـــورة فى جنـــان السبـــيـــل
(فـــــــــاس)

مطرح الجنة ومسجد الصابرين . (119) أم القرى ، ومأم المسرى ، وموقد نار الوغى ونار القرى . ومقر العز الذى لا يهضم ، وكرسى الخلافة الاعظم . والجرية (120) التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت والابية التى ما أذعنت اذعانها للايالة المرينية ولا أطاعت .

أى كلف وكلف ! ومتفق ومختلف ! ومحاباة وزلف ! وقضيم وعلف ! وخلف عن سلف ! انما الدنيا أبو دلف (121) ! .

---

674 هـ = 1275 م ، وقد اطلقت عليها عدة اسماء ، مثل المدينة البيضاء ، والبلد الجديد ، والمدينة الجديدة . وتتصل فاس القديمة بفاس الجديدة عبر حدائق أبى الجنود الغناء ، وتعتبر أبواب فاس غريبة الشكل ، كباب الدكاكين ، وباب الساكمة ، وباب السمارين .

هذا وتعتبر المدينة فى مقدمة مدن المغرب ثقافيا وصناعيا وتجاريا ، وتزدهر فيها السياحة ، نظرا لما تشتمل عليه — غير ما ذكرنا — من آثار هامة ، كالمدرسة البوعنانية ذات الساعة الشمسية الغريبة ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة المصباحية ، ومسجد الاندلس ، وزاوية المولى ادريس الثانى مؤسس المدينة ، حيث يوجد بها الضريح . كما توجد قبور المرينيين على مرتفع يمكن منه رؤية المدينة فى السفح ، وقد احاطتها الاسوار الاثرية ، فبدت فتنة الناظرين ..

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 194 — 195 ، والسلاوى فى « الاستقصا » ج 2 ص 22 ، ثم :

ود. عبد الهادى التازى فى : « جامع القرويين » .

وانظر : Descripcion de Africa, P.P. 122-148 (juin Léon Africano).

119) مسجد الصابرين : أحد المعالم الاسلامية بفاس .
انظر: مجلة البحث العلمى — السنة الثانية عشرة — العدد 14 الصادرة بالمغرب.

120) الجرية : حوصلة الطائر .

121) هذا التعبير اقتباسا من قول الشاعر العكوك على بن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف بين مغزاة ومختصره
فاذا ولى ابو دلف ولت الدنيا على اثره

وابو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلى ، أمير الكرخ ، وسيد قومه ، وأحد الاجواد من الشعراء ، كما كان من رجال الرشيد ، ثم ابنه المأمون وقد عقد له الكاتب ابن طيفور فصلا خاصا فى كتابه « بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية » عند حديثه عن الخليفة المأمون ، توفى أبو دلف عام 226 هـ . والشهرة بعدئذ واضحة للرجل فى الغنى العريض ، والكرم النادر ...

سألت عن العالم الثانى (122) ، ومحراب السبع المثانى ، ومعنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى ، وارم المبانى(123) ، ومصلى القاصى والدانى . هى الحشر الاول ، والقطب الذى عليه المعول ، والكتاب الذى لا يتأول . بلد المدارك والمدارس ، والمشايـخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس . والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق ، وتنور الماء الدافق ، ومحشر المؤمن والمنافق ، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى النى نظر اليها عطارد (124) فاستجفاها (125) وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه (124 : ب) الحسود فسترها بالغور وأخفاها (126) . والاسواق التى ـ ثمرات كل شىء اليها ـ قد جبيت ، والموارد التى اختصت بالخضر وحبيت ، والمنازه المخطوبة ، وصفاح الخلج المشطوبة ، والغدر التى منها أبو طوبة (127) .

بلـد أعارتـه الحمامـة طوقهـا وكساه ر ريش جناحه ـ الطاووس
فكأنمـا الانهـار فيـه مدامـة وكـأن ساحات الديـار كـؤوس

اجتمع بها ما أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام ، فلا يعدم فى مسالكها زحـام . فأحجارها طاحنة ، ومخابزها شاحنـة ، وألسنتها ـ باللغات المختلفـة ـ لاحنة ، ومكاتبها مائجـة ، ورحابهـا متمائجة ، وأوقافها جارية ، والهمم فيها ـ الى الحسنات وأضدادها ـ متبـاريـة .

---

122) ويقصد بالعالم الاول الاندلس .
123) ارم المبانى : علم المبانى .
124) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .
125) استجفاها : طلب منها البعد ، والتعبير كلية كناية عن علو شان المدينـة ومنزلتها السامية .
126) يعنى أن موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع ، لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .
127) أبو طوبه : الريح الطيبة .

بلد نكاح وأكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زى وشكل ، ينتبه بها الباه ، وتتل الجباه ، وتوجد للازواج الاشباه . الى وفور النشب (128) ، وكثرة الخشب ووجود الرقيق ، وطيب الدقيق ، وامكان الادام ، وتعدد الخدام ، وعمران المساجد والجوامع ، وادامة ذكر الله فى المآذن والصوامع .

وأما مدينة الملك (129) ، فبيضاء كالصباح ، أفق للغرر الصباح ، يحتقر ــ لايوانها ــ ايوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعد الحرس ، وملاعب (125 : أ) الليث المفترس (130) ، ومنابت الدوح المغترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف الترس والنصل ، وأهداف الناشبة أولى الخصل (131) . وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الاقتناب ، وكراسى الحجاب ، وعنصر الامر العجاب .

الى الناعورة التى مثلت من الفلك الدوار مثالا ، وأوحى الماء الى كل سماء منها أمرها فأبدت امتثالا ، ومجت العذب البرود سلسالا ، وألفت أكوابها الترفه والترف ، فاذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى (132) .

---

128) النشب : نوع من الشجر تستعمل من خشبه القسى .

129) مدينة الملك : يقصد بها فاس الجديد .

130) كان من عادة ملوك بنى مرين ان يشهدوا فى حلبة خاصة مصارعة بين الثور والاسد ، وكثيرا ما كانت تنتهى بانتصار الثور . ولعل هذا اصل مصارعة الثيران باسبانيا اليوم .

131) الخصل : عود عليه شوك .

132) قوراء : قرص مدور متسع المحيط مخروق الوسط ، والناعورة هكذا ، وعليها الاوانى الفخارية ، وبدورانها تحمل المياه ، ثم تلقيها من عل كالشهب الراصدة .

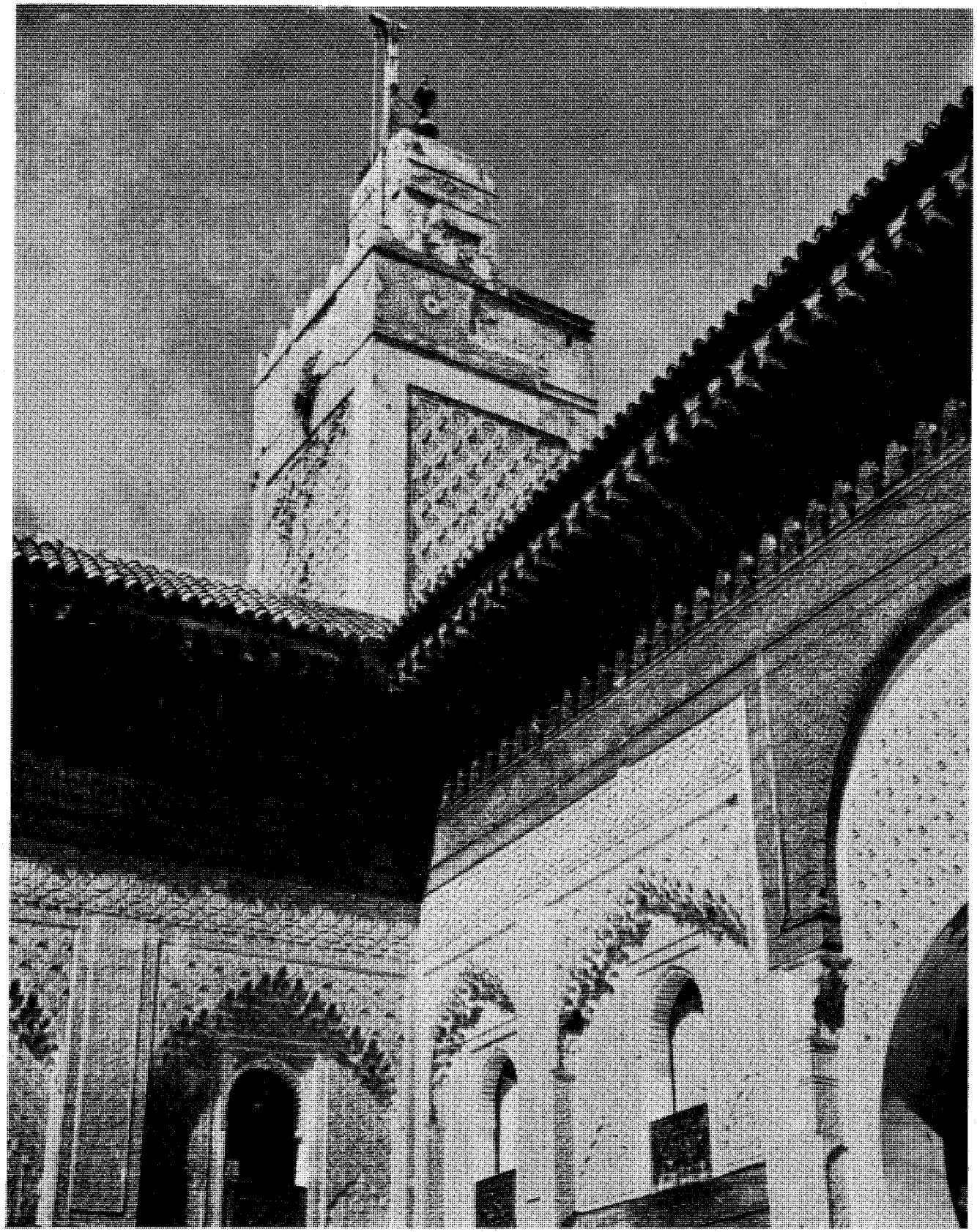

(المدرسة البوعنانية)

وقوراء (133) من قوس الغمام ابتغوا لها
مثـالا أداروهـــا عليـه بـلا شـــك

فبيـن الثريـا والثـرى سـد جـرمهـا
وللفلـك الـدوار قـد أصبحت تحكـــى

تصوغ لجيـن النهـر فى الروض دائمـا
دراهـم نـورقـد خلصن مـن السبـك

وترسـل مـن شهبانهـا ذا ذؤابـــة
فتنفى استراق السمع عن حوزةالملك (134)

تذكـرت العهـد الـذى اخترعـت بـــه
وحنـت فمـا تنفـك ساجعـة تبكـــى

ثم قال : الا أن حر هذه المدينة مذيب ، وساكنها ذيب ، ومسالكهـا وعرة ، وظهائرها مستعرة ، وطينها هائل ، وزحامها حرب وائل (135) . ان نشد الجفاء ناشد ، فهى ضالته المنشودة ، أو حشد أصنافـه حاشـد

---

133) يشير بذلك الى قوله تعالى : « وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » سورة الجن ، آية : 9 ، وفى هذا ــ كما فى البيت التالى ــ حسن تعليل لطيـف .

134) اقتباسا من قوله تعالى : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليـــلا » سورة النساء ، آية : 142 .

135) وتعرف بحرب البسوس ، حدثت فى الجاهلية قبيل الاسلام ، وقد قامت بسبب ناقة لدار جساس ، قتلها كليب ، فقتل جساس قاتلها كليبا ، ودارت الحرب بين بكر وتغلب اثر ذلك ، واستمرت قرابة اربعين عاما ، وكانت بينهما فى تلك المدة خمس وقعات شهيرة ، تارة يكون الظهور فيها لبكر ، وتارة لتغلب ، وتارة ينتصفان ، حتى تصالحا بعد ان سقط خيرة القبيلتين وزهرة شبابهما ، فضرب المثل بحرب وائل ، كما قيل فى التطير فى الامثلة العربية : اشأم من البسوس .

(125 : ب) فهى كتييته المحشودة . الى بعد الاقطار ، وعياث الميازب أوقات الامطار ، والاشتراك فى المساكن والديار، على الموافقة والاختيار، وتجهم الوجوه للغريب ، ذى الطرف المريب ، وغفلة الاملس عن الجريب (136) ، ودبيب العقارب ، أرسالا كالقطا القارب (137) . وأهلها يرون لانفسهم مزية الفضل ، ويدينون فى مكافأة الصنائع البالغة بالعضل (138). يلقى الرجل أبا مثواه فلايدعوه الى بيته، ولايسمح(139) له ببقله ولا زيته (140) ، فلا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم (141) . ومقبرتهم غير نابهة ، وأجداثها غير متشابهة ، مشربة حيوان ، ومشبعة جرذان ، غير وان (142) .

15 ـ آقر سلوين (143)

قلت : فما تقول فى آقر سلوين ؟

قال : واد عجيب ، وبلد لداعى الايناع مجيب ، مخضر الوهاد ، كثير شجر الجوز والزيتون ، كنفته الجبال الشم ، وحنا عليه الطود كما تحنو

---

136) كناية عن ان اهل المدينة يتميزون ومعروفون ، والغريب حينئذ ظاهر بينهم مهمل ، لا يلقونه كما يلقون بعضا .

137) القطا القارب : القطا الذى يطلب الماء ليلا .

138) العضل : بفتح العين وسكون الضاد ، الشدة .

139) فى نسختى (ط ، س) « ولا يسمع » ، وهو ما لا يتناسب والسياق .

140) فى نسخة (ط) « ولا بزيته » ، وهو أوفق للعطف باعادة الجار .

141) اقتباسا من قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود انما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب » سورة ص ، آية : 24 .

142) غير وان : غير مقصر .

143) آقر سلوين : يحتمل أن يكون المراد بها قصبة سلوان ، حيث تقطن قبائل « بنى يطفتى » ، بالريف شمال المغرب .

على ولدها الام ، فهواؤها ملائم ، والعنب على الفصـــول دائـــم . الا أن الشمس لا تطرقه بنوال ، ولا ترمقه الا وقت زوال . قد باء بالحظ الموكوس وانكمش تحت ابط الظل المنكوس ، فجوه عديم الطلاوة (126 : أ) ، وعنبه ــ للبرد ــ قليل الحلاوة .

16 ــ « سجلماســـة » (144)

قلت : فسجلماسة ؟

قال : تلك كورة (145) ، وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة ، كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم (146) ، وبلد تبر وأديم ، ومنمى تجر ومكسب عديم (147) . معدن التمر ، بحكمة صاحب الخلق والامر ، تتعدد أنواعه ، فتعيى الحساب . وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب . قد استدار بها ــ لحلق السور ــ الامر العجاب ، والقطر الذى تحـــار فى ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب (148) ، باطنه فيـــه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب (149) ، يحيط بها مرحلـــة راكـــب ،

---

144) سجلماسة : يطلق هذا الاسم على مقاطعة فى جنوب المغرب تسمـــى الآن « تافيلالت » .
راجع فى هذا : ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ج 5 ص 41 ، والتعريف بابن خلدون ص 40 حاشية 1 .

145) كورة ، اى بلد به قرى ومساكن ، يقول الحموى فى معجم البلدان « ان الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينـــة او نهر » (ج. 1 ص 36) .

146) يقصد دولة « بنى مدرار » التى عاصرت دولة الادارسة ، فقد اتخـــذت سجلماسة قاعدة لملكها .

147) اى عديـــم النظيـــر

148) كناية عن السور المحيط بالمدينة .

149) اقتباسا من قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنـــوا : انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » سورة الحديد ، آية : 13 .

ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب . فمنازلها لا تنال بهوان ، وفدنهـا ودمنها تحت صوان ، ونخلها تطل من خلف الجدار ، وتتبوأ الايمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن ، موجودة بنزر الثمن ، وفواكهها جميمة ، ونعمها عميمة ، وسورها حصين مشيد ، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد (150) . وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم ، ويرجع الى وال يكف كـــل (126 : ب) ظلـــوم .

وهى أم البلدان ، المجاورة لحدود السودان ، فتقصدها ــ بالتبر ــ القوافل ، وتهدى الى محرابها النوافل ، والرفاهيـــة بهـــا فاشيـــة ، والنشافى (151) الحلية ناشية (152) . لكنها معركة غبار ، وقتيل عقربها جبار (153) ، ولباسها خامل ، والجفاء بها شامل ، والجو يسفر عن الوجه القطوب ، والمطر معدود من الخطوب ، لبناء جدرانها بالطوب ، والقـــرع برؤوس أهلها عابث ، والعمش (154) فى جفونهم لابث ، والحصا يصيبهم، ويتوفـــر (155) منه نصيبهم .

---

150) المعتصم والرشيد ، من اشهر وأعظم خلفاء بنى العباس ، فالمعتصم هـــو أبو اسحاق محمد بن هارون الرشيد ، 218 ــ 227 هـ (833 ــ 842 م) ، وأما هارون الرشيد فقد حكم من عام (170 ــ 193 هـ ، 786 ــ 809 م) ، ويرمى بهذا الى المبالغة فى عظم شأن الجسر المؤدى الى المدينة .

151) النشافى الحلية : الاحجار ذات النخاريب ، تستعملها النساء فى الحمامات .

152) ناشية : ذات رائحة طيبة .

153) جبار : هدر ، وذهب دم القتيل جبارا ، أى لم يؤخذ له بالقصاص ولا بالدية .

154) العمش : ضعف بالبصر تصحبه الدموع .

155) فى نسختى (س ، ط) « يتوقر » ، والصواب فى نسختنا .

17 ـ « تـــــازة » (156)

قلت : فتـــازا ؟

قال : بلد امتناع ، وكشف قناع ، ومحل ريع وايناع ، ووطن طاب ماؤه ، (وصـــح)هواؤه ، وبان شرافه واعتلاؤه ، وجلت فيه مواهب الله وآلاؤه . عصير مثل ، وأمر الخصب به ممتثل ، وفواكه لا تحصى ، يماربها (157) البلد الاقصى ، وحبوبه تدوم على الخزن ، وفخاره آية فى لطافة الجرم وخفة الوزن . الا أن ريحه عاصف ، وبرده لا يصفه واصف ، وأهله فى وبال ، من معرة أهل الجبال ، وليوثه مفترسة ، وأخلاق أهلـــه شرســـة .

18 ـ غساســة (258)

قلت : فغساســة ؟

---

156) تـــازة : « Taza »تبعد هذه المدينة المغربية عن فاس بنحو 119 كم ، كما تبعد عن مدينة وجدة بمسافة 230 كم . وتتمتع بموقع جغرافى هام ، ممـــا جعلها تتخذ على مر العصور قاعدة حربية ، هكذا فعل ادريس الثانى ، كمـــا اتخذها عبد المؤمن الموحدى حصنا هاما ، وفى عهد بنى مرين جعل منهـــا أبو يعقوب المرينى قاعدة لغزو تلمسان ، وهى قرب نهر « اناون » علـــى آخر الجبال المحاذية للاطلس المتوسط ، والمواجهة لجبال الريف ، وقـــد تاسست فى القرن الثامن الميلادى . من آثار المرينيين بها المدرسة والجامع الاعظم ، وهما آيتان فى روعة الفن الاندلسى المغربى .
راجع : التعريف بابن خلدون ص 134 حاشية 2 ، وتاج العروس ج 4 ص 12

157) يمـــار : يمـــون .

158) غساسة : مدينة ذات موقع يقرب من مصب نهر ملوية Mulnia بالبحـــــر المتوسط ، وقد كانت هذه المدينة ــ يومئذ ــ مقرا لقبائل بطوية Buthoia ومن قبل فهى مرسى له أهميته ، يقع غرب مليلية ، أجهز عليه الاستعمار الاسبانى عام 1496 م ، ويعتقد أن عبد الرحمن الداخل أبحر من « غساسة » الى الاندلس ، كما نزل بها عبد الله ابن الاحمر آخر ملوك بنى نصر اثـــر سقوط غرناطة (2 يناير 1492 م) ، كما أن هذه المدينة التى اندثرت « كانت

قال : فريسة وأكيلة ، وحشف وسوء كيلة (259) . الا أنها مرسى مرســـى مطروق ، بكل ما يروق ، ومرفأ جارية (127 : أ) بحريـــــة ، ومحط جبايـــة تجريـــة .

19 ــ تلمســـــان (260)

قلت : فمدينة تلمسان ؟

قال : تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت فى موضع

المعبر المفضل للمهمات السرية والسريعة » ولذلك يشير ابن الخطيب فى وصفهـــا .

راجع : ابن خلدون فى « العبر » ج 6 ص 101 وانظر : د. عبد الهادى التازى فى مجلة « البحث العلمى » (عدد 24 من السنة 12 ص 13) تحـت عنوان « الثغور المغربية بين المواجهة المسلحة والتدخل الديبلوماسى » .

159) هذا التعبير كناية عن سوء الخارج من المحاصيل الزراعية ، بالاضافة الـى غش أربابها لها ، وبهذا يشير المؤلف الى المثل العربى (أحشفا وسـوء كيلة !!) الذى يضرب للظلم يلحق صاحبه مضاعفا .

160) تذكر المعاجم والمؤرخات أن كلمة « تلمسان » مركبة من « تلم » ومعنـاه : لها ، « وشان » أى : لها شأن ، ثم صرفت الشين ــ بمرور الزمن ــ الى السين . وذكر المقرى نقلا عن الكاتب أبى زكريا يحيى ابن خلدون من كتابـه « بغية الرواد ، فى أخبار بنى عبد الواد ، وأيام أبى حمو الشامخة الاطواد » ، بعد كلام فى شأن البربر ما صورته : « ودار ملكهم وسط بين الصحـــراء والتل ، تسمى بلغة البربر « تلمس » كلمة مركبة من « تلم » ومعناه : تجمع « سن » ومعناه : اثنان ، أى الصحراء والتل ، فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الابلى ، رحمه الله ، وكان حافظا بلسان القوم » .

وتقع المدينة غرب الجزائر ، وهى مركز للمحافظة التى تسمى باسمها ، ويبلغ عدد سكانها حوالى 85.000 نسمة ، وتشتهر بينابيعها وكرومها وصناعاتها المحلية ، والتى أهمها السجاد والجلود ومعامل النسيج . وللمدينة شهـرة علمية تاريخية ، كما كانت سوقا تجارية هامة ، ولا سيما فى عهد المرابطين الذين أسسوا بها « المسجد الكبير » . وقد اتخذها بنو عبد الواد عاصمـــة المغرب الاوسط ، وقد أخذت شهرتها فى الاضمحلال ، منذ الاحتلال العثمانى. من مشاهير علمائها أبو اسحاق الانصارى (1212 ــ 1291 م) وغيره من فقهاء العصر الاسلامى الوسيط .

راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 9 ص 331 ــ 342 (تحقيق محى الدين عبد الحميد ــ القاهرة 1369 هـ) .

شريف . كأنها ملك على رأسه تاجه ،وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها. هواء المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد . حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا نحول فيها ولا شحوب .

خزانة زرع ، ومسرح ضرع . فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع .

الا أنها بسبب حب الملوك (161) ، مطمعة للملوك ، ومن أجل ، مغلوبة للامرا . أهلها ليس عندهم (162) جمعها الصيد فى جوف الفرا الراحة ، الا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، الا امن أقام رسم الفلاحة . ليس بها لسع العقارب ، الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة (163) الا فيمن ارتكب الخطارة (164)

ثم لما وصل الى هذا الحد ، نظر الى حاج السوق (165) قد أفاض ، ومزاده قد أعمل فيه الانفاض ، وعلو الاصوات به قد صار الى الانخفاض، فقال : وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام . ومددت يدى الى الوعاء فخرقته ، والى العين فأرقته ، وقلت له : لاحكمنك من كرام بنى الاصفر ، فى العدد الاوفر ، ماثلة فى اللباس المزعفر ، فلما خضب كفيه بحنائها ، وحصلت النفس على استغنائها ، استدنانى ، وشبك بنانه ببنانى، وقال : لاحبط عملك ، ولا خاب أملك ، ولا عدم ــ المرعى الخصيب ــ

---

161) حب الملوك فاكهة صيفية ، ولاسيما فى مناطق الجزائر والمغرب ، ويقام « مهرجان » خاص فى مدينة صفرو المغربية فى موسم هذه الفاكهة حتى الآن.

162) اشارة الى المثل المشهور « كل الصيد فى جوف الفرا » .

163) الشطارة ، بفتح الشين ، الخبث ، وتقول ، « شطر فلان شطارة ــ من باب ضرب ــ فهو شاطر » وذلك اذا اعيا أهله خبثا .

164) الخطارة : ما يراهن عليه وهو السبق .

165) حاج السوق : المشترى بالسوق ، والمحتاج فيه .

هملك ، فنعم مغلى البضائع ، وحافظ الفضل الضائع ، ومقتنى الفوائد ، ومعود العوائد . واستثبت مخيلته ، فاذا الشيخ وتلميذه ، وحماره ونبيذه ، قد تنكر بالخضاب المموه ، والزى المنوه ، وعاث بخد الغلام الشعر المشوه . فقلت : هيه (166) ، أبت المعارف أن تتنكر ، والصباح أن يجحد أو ينكر ، كيف الحال بعدى ؟ وما اعتذارك عن اخلاف وعدى ؟ فقال :

خذ من زمانك ما تيسر ... واترك بجهدك ما تعسر
ولرب مجمل حالة ... ترضى به ما لم يفسر
والدهر ليس بدائم ... لا بد أن سيسوء ان سر
(127 : ب) واكتم حديثك جاهدا ... شمت المحدث أو تحسر
والناس آنية الزجاج ... إذا عثرت به تكسر
لا تعدم التقوى ، فمن ... عدم التقى فى الناس أعسر
واذا امرؤ خسر الاله ... فليس خلق ـ منه ـ أخسر

ثم ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار (167) ، وتركنى أتقرى الآثار ، وكل نظيم (168) فالى انتثار .

تمت والحمد لله (169)

---

166) هيه : كلمة تقال لطلب الاستزادة .
167) الغمار : زحمة الناس .
168) فى نسختى س ، ط « نظم » ، ولعل الصواب فى نسختنا ، اذ فعيل هنا بمعنى مفعول اى : منظوم .
169) زيادة ـ فيما اعتقد ـ من وضع الناسخ .

مصادر التحقيق
والدراسة

أ ــ المصــادر العــربيــة

1) **ابن الاحمــر :** (الامير ابو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)
(ت. 810 هـ ــ 1325 م)

(2) نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان
دراسة وتحقيق : محمد رضوان الدايــــة (بيروت 1967 م)

(1) نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان
ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863 ــ ادب

2) **ابن بطوطة :** (ابو عبد الله محمد عبد الله الطنجــى) .
(ت. 779 هـ ــ 1377 م)
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج 2 (القاهرة 1938)

3) **ابن الخطيب :** (لسان الدين ابو عبد الله محمد)
(ت. 776 هـ ــ 1374 م)

(1) الاحاطة فى اخبار غرناطة
نسخة خطية بالاسكوريال رقم 1673 ونسختان خطيتان بالاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمى 34 ، 142 وتوجد النسخــة مطبوعة فى جزاين (القاهرة 1319 هـ) كما توجد نسخة خطية اخرى برواق المغاربة بالازهر . وقد نشر الاستاذ عبد الله عنان الجــزء الاول من كتاب الاحاطة فى مجموعة ذخائر العرب .

(ب) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ،
تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى القاهرة ــ 1948 م)

(ج) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، مخطوط بالاسكوريال رقم 1825
وقد نشر جزءا كبيرا منه العالم الاسبانى جاسبار ريميرو تحــــت عنوان :
Gaspar Remiro. Correspondencia diplomatica entre granada y Fez en el siglo XLV.

(د) اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
نشره ليفى بروفنسال فى طبعتين (رباط 1934) ، بيروت 1956 .
نشر محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة 1951 .

(هـ) كناسة الدكان بعد انتقال السكان
نشر وتحقيق د. محمد كمال شبانه ــ دار الكتاب العربى بالقاهرة 1347 هـ)

(س) رقم الحلل فى نظم الدول (تونس 1317)

4) **ابن خلـــدون :** (عبد الرحمن بن محمد)
(ت. 808 هـ ــ 1405 م)
ا ــ المقدمة (نشر مصطفى محمد بالقاهرة)
ب ــ كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر (7 أجزاء بما فى ذلك المقدمة) ،
القاهرة 1284 .
ج ــ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا
نشر محمد بن تاويـــت الطنجى ، القاهرة 1951

5) **الادريســـى :** (صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس) عن (نزهة
المشتاق) نشر دوزى ودى خويه (ليدن 1866 م)

6) **ابن غازى :** (محمد بن أحمد العثمانى المكناسى)
(841 ــ 919 هـ)
(الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون)
تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط 1964)

7) **ابن القاضـــى** (أحمد بن محمد بن أحمد)
عاش فى القرن السابع عشر الميلادى .
ا ــ جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس
(فاس 1309) .
ب ــ درة الحجال فى غرة اسماء الرجال 2 ج
(نشر علوش ، رباط 1934 م)

8) **ابو نواس :** (أبو الحسن بن هانىء)
(ت. 813 م ــ 198 هـ)
ديوان ابى نواس بتحقيق « ايفالد فاغر » ــ (طبعة القاهرة 1958)

9) **الجاحـــظ :** (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى)
(ت. 255 هـ ــ 868 م)
« البيان والتبيين »
تحقيق عبد السلام هارون طبعة (القاهرة 1948 م) .

10) **الجواليقى** (منصور بن أحمد الخضر)
« المعرب من الكلام الاعجمى على حـــروف المعجـــم » .
تحقيق أحمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة 1361 هـ)

11) **(جمال :** الدين محمد بن سالم بن نصر الله)
(ت. 697 هـ ــ 1394 م)
تجريدة الاغانـــى للاصبهانـــى

12) **الحميـــرى :** (ابن عبـــد المنعـــم)
عاش فى القرن الثامن الهجـــــرى .
الروض المعطار فى خبر الاقطار .
نشره ليفى بروفنســـال .
(ليدن 1938)

13) **السباعـــى :** (بيومـــى)
« تاريخ القصة والنقد فى الادب العربى »
(القاهـــرة 1956) .

14) **الســـلاوى :** (شهاب الدين محمد بن خالد الناصرى)
ت. 1319 هـ ــ 1901 م
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (4 أجزاء فى مجلدين)
القاهرة 1894 م ..

15) **شبانـــه :** (دكتور محمد كمال أحمد)
يوسف الاول ابن الاحمر ، سلطان غرناطة (القاهرة 1969 م)

16) **الطبـــرى :** (أبو جعفر محمد بن جرير)
(ت 922 م ــ 310 هـ)
« تاريخ الامم والملوك » (12 جزءا طبعة القاهرة 1908)

17) **عنـــان :** (محمد عبد الله) معاصر
(لسان الدين ابن الخطيب) .
(القاهرة 1968 م)

18) **القلقشندى :** (أبو العباس أحمد بن على)
ت 821 هـ ــ 1418 م
صبح الاعشى فى صناعة الانشا 14 جزءا
(القاهرة 1212 ــ 1219 هـ)

المصادر الاجنبية

1. Ballesteros, A. :
   Historia De Espana, Tomo III.
   (Barcelona-Buenos Aires 1948)

2. GARIOS DE LUNA, JOSE :
   Historia De Gibraltar (Madrid 1944).

3. LEVI PROVENCAL. E. :
   La penisule iberique Du Moyen Age d'après le Kitab Al-Rawd al Mitar, D'Ibn Abd al Munim al Himyari. (Tetuan 1950).

4. LEON AFRICANO, JUAN (A) HASAN IBN MUHAMMAD ALWAZZAN AL-FASI) :
   Description De Africa y De las cosas natables que en ella se encuentran.
   (INSTITUTO GENERAL FRANCO-TETUAN 1952)

5. MULLER, MARCUS JOSEPH :
   Beitrage zur Geschichte der westlichen araber (Munchen 1866)

6. SECO DE LUCENA, LOUIS :
   Sobre el viaje de Ibn Battuta al Reinocle Granada (Al Andalus, Vol, XVI 1951).

7. SIMONET, FRANCISCO JAVIER :
   Descripcion del Reine de Granada bajo la dominacion de los Nazaritas.
   (Madrid 1860).

الفهـــارس الموجـــودة بالكـــتـــاب

* * *

الصفـــحـــة

1) فـــهـــــرس عـــــام 194

2) فهـــــرس المـــدن الاندلسيـــة .... 195 — 196

3) فهـــرس المـــدن المغربـــيـــة 197

4) فهرس الخرائط والصور والوثائق .... 198 — 199

فهـرس عـام لمحتـويات الكتاب

الصفحـة

المـقـدمـة ..... 3 —

الفصـل الاول :

ترجمـة للمـؤلـف 9
ابن الخطيب فى نظر بعض المؤرخين ..... 23 —

الفصـل الثـانى :

تراث ابن الخطيب الفكرى وآثاره 27

الفصـل الثـالث :

عرض وتحليل للكتـاب : 41
موضـوع الـكـتـاب 43
منهـج ابن الخطيب فى الكتاب 49
قيمة الكتاب الادبية ، ومـدى صلتـه بفـن المقامات فى الادب العربى 52

الفصـل الـرابـع :

« معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار »

— المجلـس الاول —

وصف المـدن الاندلسيـة ..... 65 — 134

الفصـل الخامـس :

— المجلس الثانى —

وصـف المـدن المغربـية ..... 135 — 186
فهـرس المـدن الانـدلسيـة 194
فـهـرس الـمـدن المغـربـيـة 195
فـهـرس الخرائط والصـور والوثائق 196

فهرست المـــدن التـــى ورد وصفها فى المعيـــار

⁂

أ ــ المدن الاندلسيـــة :

1 ــ جبل طارق 82
2 ــ اسطبونة 83
3 ــ مربلـــة 85
4 ــ سهيـــل 85
5 ــ مالقـــــة 87
6 ــ بليـــش مالقـــة 92
7 ــ قمـــارش 92
8 ــ المنكـــب 94
9 ــ شلوبانيـــة 97
10 ــ برجـــة 98
11 ــ دلايـــــة 99
12 ــ المريـــة 100
13 ــ طبرنـــش 103
14 ــ بيـــرة 104
15 ــ مجاقـــــر 105
16 ــ قنتوريـــة 105
17 ــ برشانـــــة 106
18 ــ أوربـــــة 107
19 ــ بليش الشقـــــراء 107
20 ــ بسطـــة 109
21 ــ اشكـــر 110
22 ــ أنـــدرش 111
23 ــ شبالـــــش 111
24 ــ وادى آش 112

25 ــ فنيـــانـــــة 113
26 ــ غرناطـــــة 113
27 ــ الحمـــــة 124
28 ــ صالحـــــة 125
29 ــ اليـــرة ومنتفريد 125
30 ــ لوشـــة 125
31 ــ أرجذونـــة 126
32 ــ أنتقيـــرة 126
33 ــ ذكـــوان 127
34 ــ قرطمـــة 128
35 ــ رنـــدة 130

ب ــ المـــدن المغربيـــة :

1 ــ بـــادس 143
2 ــ سبتـــة 144
3 ــ طنجـــة 147
4 ــ قصر كتامـــة 149
5 ــ أصيـــلا 150
6 ــ ســـلا 152
7 ــ أنفـــا 156
8 ــ أزمـــور 158
9 ــ تبـــط 159
10 ــ ربـــاط اسفـــى 160
11 ــ مـــراكـــش 161
12 ــ اغمـــات 164
13 ــ مكنـــاســـة 165
14 ــ فـــاس 172
15 ــ آقـــر سلويـــن 179
16 ــ سجلمـــاســـة 180
17 ــ تـــازة 182
18 ــ غساســـة 182
19 ــ تلمســـان 183

فهـرست الخرائـط والصور والوثائق

---

1) الخـــرائـط

1 ــ خريطـــة الانـــدلس 80

2 ــ خريطـــة المغـــرب 142

2) الصـــور

ا ــ الانـــدلس :

1 ــ منظـــر جبل طـــارق 81
2 ــ منظر مربـــلـــــة 84
3 ــ منظر مالقة (المدينة والساحل).. 86
4 ــ منظر قصبة مالقة (الابهاء والقلعة) 86
5 ــ منظر المنكب (المدينة) 93
6 ــ منظر (الحصن) بالمنكب 95
8 ــ منظر (القصبة) بالمرية 101
9 ــ منظـــــر بسطـــة 108
11 ــ منظر قصر الحمراء 114
12 ــ منظر فناء الاسود بالحمراء 116
13 ــ منظر جنة العريف (الحمراء) 118
14 ــ منظر بركة البرطل (الحمراء) 120
15 ــ منظر قصر جنة العريف (من الخارج المواجـــه لحى البيازيـــن) 122
16 ــ منظر رندة (القنطرة العربية) 129
17 ــ منظر باب المقابر (رندة) 131

ب ـ المغـــرب

1 ـ منظـــر سبتـــــة 145
2 ـ منظـــــر طنجـــــة 148
3 ـ منظر سلا (الاسوار الاثرية) 151
4 ـ منظر الرباط (المدينة) 153
5 ـ منظر الرباط (مسجد حسان) 154
6 ـ منظر الرباط (قصبة الاودايا) 154
7 ـ منظر الدار البيضـــاء 157
9 ـ منظر صومعة مسجد (مراكش) 162
10 ـ منظر عام لمدينة مكناس 166
11 ـ مدخل ضريح مولاى اسماعيل 167
12 ـ باب الريـــح بمكنـــاس 168
13 ـ بـــاب منصـــور 169
14 ـ بـاب مسجد الانـــوار 170
15 ـ منظر مدينة فاس 171
16 ـ الناعـــــــورة 173
17 ـ منظر جانبى من المدرسة البوعنانية بالداخـــل (فـــــاس) 177

3) الـــوثـــائـــق

1 ـ صورة اللوحة الاولى من مخطوط « المعيار » عن الاصل المحفوظ بالاسكوريال (1777) 67
2 ـ اللوحة الاخيرة من « المجلس الاول » 68
3 ـ اللوحة الاولى « من المجلس الثانى » 69
4 ـ اللوحة الاخيرة من « المجلس الثانى » ، وهى نهاية المخطـــوط 70